

جنتان

عِش جنة الدنيا قبل جنة الآخرة



خالد أبو شادي



للنشر والتوزيع

اسم الكتاب	جنتان
المؤلف	د. خالد أبو شادي
مقاس الكتاب	17 × 24
عدد الصفحات	160
عدد الألوان	2 لون
رقم الإيداع	2013 / 3109

تليفون: 02 29733266 موبايل: 0100 20047865

٤٢ شارع رياض - حلوان - القاهرة

E-Mail: Tibaadv@yahoo.com

سِرّ العنوان

إنها جنة القرب من الله ولا أروع!

تحياها في دنياك..

وتقطف ثمارها هناك..

من فاته نعيم اليوم..

حُرِم اللذتين، وخسر الجنتين..

وشتان ما بين الخسارتين!!

ومن فاز في الأولى ربح الاثنتين..

وهي صيحة مخلص في المُعرِضين أن أقبلوا..

ودعوة مُحِبٍّ للمُقبلين أن أبشروا..

ثم من بعد البشارة فلتشكروا:

وشكركم أن تنشروا خيركم في العالمين

وأرجاءَ الأرض فلتعمروا

مُنَاجَاة

قال ابن الجوزي:

إلهي..

إلهي أيقظتني فِي الصِّبَا، وأقمتني أدل الْخَلق عليك، ومَزَجْتَ كأس نطقي بعذوبة، وجعلتني في أخباري معروفًا بالأمانة، فركن إليَّ أهل المعاملة، ولو عرفوا إفلاسي ما عوملت.

إلهي طالما اجتذبتُ العصاة بعد أن تهافتوا في النَّار.. أفيصدرون وأرِد؟! سيِّدي إِن لم أصلح للرضا فالعفو العفو.

إلهي وسيدي!

إن قضيت علي بالعذاب غدًا، فلا تعلمهم بعذابي، صيانة لكرمك لا لأجلي، لئلا يقولوا: عذَّب من دلَّ عليه.

إلهي! قد قيل لنبيك ﷺ: اقتل **ابن أُبَيٍّ المنافق**! فقال: «**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**».

إلهي! فاحفظ حسن عقائدهم في بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك.

إلهي فأنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين فلا تخيب من علَّق أمله ورجاءه بك، ودعا عبادك إلى بابك وإن كان متطفلا على كرمك، ولم يكن أهلا للسمسرة بينك وبين عبادك، لكنه طمع في سعة جودك وكرمك، فأنت أهل الجود والكرم، ولربما استحيا الكريم من رد من تطفل على بساط كرمه.

المقدِّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم..

أما بعد..

فإن الرجاء والخوف هما جناحا المؤمن اللذان يحلِّق بهما نحو سماء الآخرة، ويهوي قلبه عن طريقهما نحو كل مقام محمود ويجتاز كل عقبة كؤود، فلا يعترض في طريقه إلى الجنة شهوة أو غفلة، ولا يحول بينه وبين غايته نفسٌ ولا هوى، وهو ما يعيد طرح السؤال الشائع:

أيهما أفضل: الخوف أم الرجاء؟!

ويتولى **أبو حامد الغزالي** الرد في بلاغة وإقناع قائلاً:

«سؤالٌ فاسد يُضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟! وجوابه أن يُقال الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نُظِر إلى الأغلب، فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان»[1].

والخوف والرجاء توأمان لا ينفكان، بل «كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان، فإنَّ كل من رجا محبوبًا، فلابد وأن يخاف فوته، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذا لا يحبه، فلا يكون بانتظاره راجيا، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر»[2].

ولذا لم يفرِّق **الحارث المحاسبي** في تعريفه للرجاء بينه وبين الخوف، فكان مما قال في الرجاء: «أن ترجو قبول الأعمال وجزيل الثواب عليها، وتخاف مع ذلك أن يُرَدَّ عليك عملك، أو يكون قد دخلته آفة أفسدته عليه»[3].

ومع هذا النظرة العامة للخوف والرجاء، فإنَّ هذا الكتاب منحازٌ إلى أحد الفريقين،

---

(١) الإحياء ٤/ ١٦٤

(٢) السابق ٤/ ١٦٢

(٣) آداب النفوس ١/ ٦٧،٦٨ - الحارث بن أسد المحاسبي - دار الجيل - بيروت - لبنان.

ومائل إلى أحد الكفتين وليس محايدًا، فهو صفحة من صفحات تغليب الرجاء على الخوف، والترغيب على الترهيب، وهو منهج قلة من الدعاة، حيث يسهل الحديث عند الكثير عن الخوف، وتمتلئ به كتب الأقدمين وتراث سلفنا حيث سياط التخويف وسطوات التعنيف، والعذاب فوق من الرحمة، وسوء الخاتمة قبل حسنها، وألسنة النار تعلو على نسائم الجنة، حتى حين نتحدث عن المقامين نقدِّم الخوف، فنقول الخوف والرجاء»، وليس «الرجاء والخوف»، ودين الله وسط بين الغالي والجافي، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، والناس تحتاج من يسوقهم إلى ربهم سوقًا رفيقًا، ويشجِّع أي بادرة خير، ويتألف قلوب من عصى ربه جاهلاً بقدره، ويفتح أبواب مدرسة الرجاء بما فيها من فصول المحبة والحياء.

وهو وإن كان كتابًا عامًا يتوجه إلى الجميع إلا أنه يخاطب طائفتين بالأساس، ويقدِّم لهما جرعة دواء وشفاءً لما في صدر كلٍّ من:

العاصي الذي انهالت عليه شبهات اليائسين، وأحاطت به خطايا السنين حتى جعلت الفوز بالجنة عنده ضربًا من الخيال، والمغفرة لديه هدف محال.

من فترت نفسه عن فضائل الأعمال، واقتصر على الفرائض حتى انتقص منها، فتجري مراكب الرجاء لتُقِلَّه إلى شواطئ الرحمات، فتتقد في قلبه شعلة الحماس بعد أن كادت تنطفئ إثر موسم فتور ونوبة خمول.

والرجاء الحق لا يكون إلا بعد المعرفة، فمن لم يعرف ربه لم يعرف الرجاء إلى قلبه سبيلاً، وظنَّ بربه ظن السوء، وهذا الكتاب هو محاولة متواضعة للمساهمة في تنمية الجانب الرجائيِّ الغائب، ويضيء لك من قريب مساحات إيمانية رائعة، فتتعرف على لطف الله ورحمته، وترتشف من كأس كرمه ومحبته وتباشر بنفسك من خلال ما تقرأ ملامح واقعية في الحياة العملية لهذا الكرم من خلال شهادات الصالحين وتجارب السابقين، بل والمعاصرين، فتتذوق طعم المحبة، وتأوي إلى ظلال السكينة، وتتنزَّه في ساحات السعادة.

والكتاب يسلِّط الضوء بالأساس على باب رئيس من أبواب الرجاء هو «حُسن

الحسنات»، وهي رسالة مختصرة طِبعت لي منذ عدة سنوات، ثم رأيت أن أزيدها وأزينها، وأزورها مرة ثانية لأسلط الضوء على جوانب كثيرة متفرِّقة، فرأيت أن أجعلها في جعبة واحدة وبين دفتي كتاب لتقدِّم جرعة مكثفة تقذف باليأس في قلب اليأس، وتُقنِّط القنوط من غزو القلوب.

وحتى لا ينقلب رجاؤك غرورًا وحرثًا في بحر وأوهام، فقد ربطت كثيرًا من ثمرات هذه الحسنات بألوان من عبادات القلوب والجوارح، وذلك في محاولة لجعل الكتاب مستودع الزاد الذي يشحن القلب مصحوبا بخطةٍ عملية للتنفيذ، لتجمع بين الإيمان والعمل الصالح، وتتجهز دولة قلبك بالعتاد والأعداد.

وأخيرًا..

وقبل أن أترككم لصفحات الكتاب.. إليكم بشارة **يحيى بن معاذ**.. في عبارة رائقة يخاطب بها كل من نطق بكلمة التوحيد ليعيد بها الأمل في بعثٍ إيماني جديد:

«إذا كان توحيد ساعة يحبط ذنوب خمسين سنة فتوحيد خمسين سنة ماذا سيصنع بالذنوب؟!»[١].

عسى من أحيا الأرض المجدبة بعد موتها بغيث السماء أن يحيي القلوب القاسية بنور السماء، لينشد القلب مسرورًا بربيع جديد يحيي روحه ويورق أزهاره ويبعث ثماره:

إذا ما تجــدَّد فصـل الربيع	**تـجـدد للقلب فـضـل الرجـاء**
عسى الحال يصلح بعـد الذنوب	**كما الأرض تهتـز بعد الشتــاء**
ومن ذا الذي ليس يرجوك ربي	**وربـع عطـائك رحـب الفنـاء**

أسأل الله أن يجعل كلماتي صدى كلمات النبوة المبهجة:

«يسِّروا ولا تعسروا، وبشِّروا ولا تنفروا».

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ١/ ٣٦٦- أبو طالب المكي - ط دار الكتب العلمية.

وأن يجعل منه ضربة قاصمة للشيطان في معركتنا الأبدية معه.

وأن يجعله خير عُدَّة لدعاة يبشِّرون، ولقلوب الخلق يتألفون، ومن النار يستنقذون.

وأن ينفعني به في قبري، فترتقي به درجاتي وأنا مُوسَّد في التراب، وتتسع مساحة أملاكي في الجنة بعمل الناس بما جاء في هذا الكتاب، ويرقص القلب فرحا وهو يطَّلع على أبوابٍ من الخير تنفتح ببركة كلماته..

وأخيرًا أن يجمعني بمن قرأ وانتفع ودعا ونشر في ظل عرش الله الكريم...

وأن يفتح به باب الإجابة ليرتقي بقارئه سلَّم الرجاء..

كتبه محبًا راجيًا



د. خالد أبوشادي



زكاة العلم نشره

هذا الكتاب هو علم جديد تحوزه، فيفرض عليك أن تدفع زكاته كما قال **ابن حبان البستي** عن الواجب تجاه العلم:

إذا رُزِقَ منه الحظَّ لا يبخل بالإفادة، لأن أولَ بركة العلم الإفادة، وما رأيتُ أحدا قط بخل بالعلم، إلا لم ينتفع بعلمه، وكما لا ينتفع بالماء الساكن تحت الأرض مَا لم يَنبَع، ولا بالذهب الأحمر مَا لم يُستخرج من معدنه، ولا باللؤلؤ النفيس مَا لم يخرج من بَحره، كذلك لا ينتفع بالعلم مَا دام مكنونا، لا ينشر ولا يفاد[1].

ماذا ورد عليك من ربك؟!

قال **الحارث المحاسبي**:

ومن لا يكون عالمًا بما ورد عليه من الله يُوشك ألا يكون عالما بما ورد على الله تعالى منه[2].

إذا لم تعلم نعم الله المتنزلة عليك صباح مساء، وحسناته المتواترة في سرك وجهرك، فهذا علامة على أن بصيرة قلبك أصابها العمى، فلم تعُد تميِّز الحسن من القبيح، ولا ما يُدني من الجنة أو يهوي بك إلى النار، وشرُّ العمى عمى القلب، فإذا عميَ القلب صار غير قادر على تمييز أعماله الصاعدة كل لحظة إلى ربه.

وهذا الكتاب شعاع نور مسلَّط على بعض نعم الله الخفية لتتذوق حلاوتها، فيتهيَّأ قلبك لردِّ جميلِ صنع الله إليه، ويقابل إحسان الله إليه بإحسان، وإيثاره لك بإيثاره على ما سواه.

---

(١) روضة العقلاء ص ٤١، ٤٢.

(٢) آداب النفوس ص ١٧٦.

شرط

إن لم ينصت سمع قلبك لنبض كلماتي، فقد أضعت وقتك وابتدت حسَراتي.

ترجيح كفة الرجاء..

قال الله تعالى: «**يا ابن آدم قم إلي أمش إليك وامش إلي أهرول إليك**»[1].

كتاب نافع أو ضائع؟!

قال **الربيع**: سمعت **الشافعي** مرارًا كثيرة يقول: «ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع»[2].

ولا نفع من هذا الكتاب إلا بالعمل، وعملك يشملك ومن حولك؛ يشملك بأن تعمل بعلمك الذي استفدته من هذا الكتاب، ويشمل من حولك بأن تدعوهم إلى ما علمته وعملت به.

الخلاصة: إن لم ينصت سمع قلبك لنبض كلماتي، فقد أضعت وقتك وابتدت حسَراتي.

(١) صحيح أحمد عن رجل [حم] عن رجل كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٢٨٧.
(٢) حلية لأولياء ٩/ ١٢٣

بين الظنِّ والمنِّ

قال ذو النون:

«من المحال أن يحسن منك الظنّ ولا يحسن منه المنّ»[1].

كثرة القول مع قلة العمل!

وأرسل **أبو جعفر** إلى **سفيان الثّوريّ**، فلما دخل عليه قال: عظني أبا عبد الله. قال: وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت؟ فما وجد له **المنصور** جوابا[2].

أحسن الظن بربك!

قال **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: «والذي لا إله غيره.. لا يحسن عبد بالله عز وجل الظن إلا أعطاه الله ظنه، ذلك بأن الخير في يده»[3].

وهذا الكتاب يزرع فيك حسن الظن بربك على أساس صحيح من حسن العمل وبذل الجهد لا طول الأمل مع سوء العمل.

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٩/ ٣٨٤

(٢) العقد الفريد ١ – ٥٥ ط الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

(٣) حسن الظن لابن أبي الدنيا «٩٦»

جلسات الحب!

لما حضرت الوفاة الواعظ **محمد بن صبيح** الشهير **بابن السماك** قال: «اللهم إنك تعلم أني لم أجلس مجلسًا للناس إلا لأُحبِّبَك إلى خلقك، وأُحبِّب خلقك إليك»[(١)].

فاجعل هذا الكتاب استمرارا لهذا النهج، فتنشره في من حولك.. ترجو بذلك أروع خاتمة لك ولمن تاب معك.

ربك أم والداك؟!

قال **سفيان الثَّوري** رحمه اللهَّ: «ما أُحبُّ أن حسابي جُعِلَ إلى والديَّ؛ رَبِّي خيرٌ لي مِن والديَّ»[(٢)].

بين رجاءين!

رجاء المخلوق مهما كان عظيما وهـمٌ وسراب، لأن أي واحد من البشر ربما أراد أن ينفعك فأضرك، ونوى سعادتك فأتعسك، أو إفادتك فآذاك، ولربما حاول فعجَز، أما رجاء رب العالمين فهو تعلقٌ بالقدير الذي لا يُعجِزه شيء، والكريم الذي لا يخيِّب من رجاه، ولا يردُّ من دعاه، والعليم بما ينفع ويضر دون أحد من رعاياه.

(١) تاريخ بغداد لابن أبي الدنيا ٢/ ٤٤٩

(٢) حسن الظن لابن أبي الدنيا ١/ ٤٥.

ذنبٌ بين إحسانين!

قال علي رضي الله عنه:

«من أذنب ذنبًا فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنبًا فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة»[1].

يا مستُورًا على الذَّنْب..

انظُر في سِتْـرِ مَنْ تبيت وتصبح، فلو عرَفْتَ خفـي إحسـانه وجميل أفعاله لذبت شـوقا إليه، وما أجمل فعل الحيـي السِّتير بك، فلم يهتك لك سترا، فأخفى القبائح ولم يجعل لها روائح، حتى مدحك الناس بما ليس فيك، ولم يدروا بكثير من مساويك، فأين هذا من بَشَرٍ لا يستر لك عورة، ولا يغفر زلة، ولا تأمنه في حلم ولا غضب.

بين رجاء صادق وكاذب!

قال **معاذ بن جبل**: «سيبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب، فيتهافت، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصَّروا قالوا: سنبلغ، وإن أساءوا قالوا: سيُغفَر لنا، إنا لا نشرك بالله شيئا»[2].

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٥٢.
(٢) التذكرة بأحوال الموتى والآخرة ١/ ١٢٣٠.

كرم إلهي!

التزم الحسن بن علي الركن فقال:

إلهي نعَّمتني فلم تجدني شاكرا

وأبليتني فلم تجدني صابرا..

فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر

ولا أنت أدمت الشدة بترك الصبر!

إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم،

ولا من الجافي إلا الجفا![1]

الخير منه وحده!

مرض أعرابي فقيل له: إنك تموت، فقال: أين يُذْهَب بي؟ قالوا: إلى الله، فقال: وما كراهيتي أن أذهب إلى مَن لا يُرى الخير إلا منه[2].

(١) سراج الملوك ١/ ١٠٩.
(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦٦.



السكينة عند البلاء

لقد خلقنا الإنسان في كبد، وكلٌّ منا له في هذه الدنيا مصاب، ومن رام الصفو في دار كدر فما عاشها وما عرفها.. أما أنت أيها المؤمن، فرصيد إيمانك وقاك، وسابق فضلك أنجاك، ولذا تكسَّرت عواصف الأحزان والآلام على صخرة إحسانك، فغيرُك يبكي وأنت تضحك، وقلبك متميِّز.. راضٍ وسط اعتراض.. ساكنٌ حين اضطراب.





هي الطّمأنينة والوقار والسكون الذي يلقي به الله في قلب عبده المؤمن عند اضطراب غيره من شدّة الخوف، وأصلها في القلب، ثم يظهر أثرها على الجوارح، وثمرتها طمأنينة البال وراحة النفس وانشراح الصدر خاصة عند الشدائد، ويعين على هذا نظرة القلب إلى المحن على أنها كفارات ورافعة درجات وأمارة اصطفاء، ولهذا غاظ الإمام **ابن تيمية** أعداءه وألقمهم حجرا حين أُدخِل سجن القلعة ثم ساءلهم:

ماذا يصنع أعدائي بي؟! أنا جنّتي وبستاني في صدري.. إن معي كتاب الله وسنة نبيه.. إن قتلوني فقتلي شهادة وان سجنوني فسجني خلوة مع ربي.. إن المحبوس مَن حُبس عن ربه وإن الأسير مَن أسره هواه.

وكان يقول في محبسه:

لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا؛ ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير

ويقول: المحبوس من حُبِس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

ولما أدخل إلى القلعة وصار داخل السور نظر إليه وقال:

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

وقد تحدَّث عن هذا الأثر الإيماني الرائع تلميذه **ابن قيم الجوزية**، ووصفه بأنه جنة قبل الجنة، ونعيم عظيم قبل النعيم الأعظم فقال:

«وعلم الله ما رأيت أحدًا، أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيس وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا وأشرحهم صدرا، وأقواهم قلبا، وأسرهم نفسا، تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه: فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا، وقوة ويقينًا وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من

روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»[١].

مع أنه لاقى في حياته ما لو مر بالحديد لذاب، أو بالوليد لشاب، حتى قيل أنه لم ينتقل طول عمره من محنة إلا إلى محنة، لكنه أثر الطاعات وبركة الحسنات جعله لا يبالي بما دارت به الأدوار، وما أجراه الليل والنهار، فصنعت له من الصبر أفضل عدة، وكأنه حفظ بعقله وسمعه كتاب الفرج بعد الشدة، فزالت عنه الهموم، وانقشعت غيوم الغموم، ولهذا لا يُختبر العبد إيمانه ولا تُعرَف خبيئة قلبه بمثل الشدائد. قال **ابن تيمية**:

«وكمائن القلوب تظهر عند المحن»[٢].

ولعل من حُسْنِ حسناته وعجائب كراماته أن جِنًّا مُسلمًا تمثَّل في هيئته بدمشق بينما كان الإمام مسجونًا في القلعة بمصر!!. قال **ابن تيمية**:

«كما جرى مثل هذا لي عندما كنت في مصر في قلعتها، وجرى مثل هذا إلى كثير من التتار من ناحية المشرق حيث قال ذلك الشخص: أنا ابن تيمية، فلم يَشُك ذلك الأمير أنه أنا، وأخبر بذلك إلى ملك مصر رسولاً وكنت في الحبس فاستعظم ذلك، وأنا لم أخرج من الحبس، ولكن كان هذا جنيًّا يحبنا فيصنع بالتتار مثلما كنت أصنع بهم كلما جاءوا إلى دمشق، حيث كنت أدعوهم إلى الإسلام، فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما تَيَسَّر، ففعل معهم مثلما كنت أعمل، وأراد إكرامي ليُظَنَّ أنني أنا الذي فعلت ذلك. قالت لي طائفة: فلم لا يجوز أن يكون مَلَكًا؟! قلت: لا.. إن المَلَك لا يكذب وهذا قد قال: أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب في ذلك»[٣].

السجين الحر

هذه السكينة منحة ربانية وعطاء خفي، وثروة غير محسوسة لدى كثير من الماديين

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٤٨.
(٢) مجموع الفتاوى ١٣/ ٩٢،٩٣ - ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٩



والدنيويين إلا أن تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبًا من دارهم، وهي راسخة في قلب المؤمن وإن كان في معمعة المحنة ومدلهمة الشدة وقعر السجن! حتى إنه ليرفع صوته منشدا مع **علي بن الجهم** رغم القيود تزين معصمه:

قالوا: حُبِستَ فقلتُ ليس بضائري ... حبسي. وأيّ مهنَّد لا يغمد؟

والبدر يُدرِكه المُحاق فتنجلي ... أيّامه وكأنه متجدّد

والسجن، ما لم تغشه لدنيَّة ... شنعاء، نعم المنزل المتورّد

بيت يجدِّد للكريم كرامة ... فيُزار فيه ولا يزور ويحفد

ومن يملك مفاتيح القلوب حتى يفتح أبوابها لمثل هذه السكينة تغزوها وتغمرها غير الله؟! وكأن السجن لديه نزهة، والحبس أُنس، ورنة القيود أطرب لدى قلب المؤمن من سماع العود!

بريق الماس!

إن صنائع الزمان وشدائد الأقدار بالناس نازلة، فهي طبيعة دنيانا وكدرها الذي لا يصفو أبدًا، فمنا من يتضعضع أمامها، ومنا من يقف كالجبل الأشم والطود الراسخ في وجه العواصف، وليس هذا إلا بطاقة روحية هائلة، يكتسبها المرء عبر رحلة إيمانية طويلة تتوثَّق فيها صلته بمولاه ورضاه بِقَضاه.

وما الشدة إلا ريح عاصف تعصف بالقلوب، فمن قوي قلبه بربه ثبت لها، ومن وَهَن قلبه وضعف انصهر في بوتقة البلاء، وتخاذل في مقام التضحية والفداء، ولذا كانت الطاعة كنزا مخبوءا وجوهرة مكنونه لا يسطع بريقها إلا في نار المحنة، ولا يُدرك العبد قيمتها إلا عند مواسم الشدة، ليميز الله البهرج من الجيِّد، والخبيث من الطيب. قال عز وجل:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾

[آل عمران: ١٧٩].

قال **الزمخشري** شارحًا هذه السنة الربانية:

«لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب، بأن يكلِّفكم التكاليف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخُلَّص الذين امتحن اللهّ قلوبهم كبذل الأرواح في الجهاد، وإنفاق الأموال في سبيل الله، فيجعل ذلك عيارا على عقائدكم وشاهدا بضمائركم، حتى يعلم بعضُكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال، لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطلاع عليها، فإن ذلك مما استأثر الله به»[١].

إن الناس سواسية حالَ الأمن والعافية، فإذا نزلت الشدائد والمحن كانوا أنماط وألوان، ومعادن وأشكال! وذلك بحسب سوابق الأعمال وسوالف الأحوال، وهو ما شهد به **الحسن البصري** بعد ما رآه تجربة ومشاهدة:

«استوى الناس في العافية، فإذا نزل البلاء تباينوا»[٢].

اليقين دواء الشدائد

وما هذه السكينة إلا ثمرة يقين راسخ، غرسه فينا نبي كريم هو نبع اليقين، ورعاه حتى نما واستغلظ فاستوى على سوقه، وانظر كيف تمَّت هذه الرعاية النبوية من خلال مواقف يومية متكرِّرة مع أصحابه، ومن هذه المواقف هذا الموقف التربوي الرائع:

كان نبي الله ﷺ إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره، فيُقْعِده بين يديه، فَهَلَك فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لِذِكر ابنه، فحزن عليه، ففقده النبي ﷺ فقال:

«ما لي لا أرى فلانًا؟».

قالوا: يا رسول الله، بُنَيُّه الذي رأيته هلك، فلقيه النبي ﷺ، فسأله عن بُنَيِّه، فأخبره أنه

---

(١) الكشاف ١/ ٤٤٥– الزمخشري – ط دار الكتاب العربي

(٢) صيد الخاطر ص ٢٨٤ – ابن الجوزي– ط دار القلم

هلك، فعزَّاه عليه، ثم قال:

«يا فلان، أيُّما كان أحب إليك: أن تمتَّع به عمرَك، أو لا تأتي غدا إلى باب من أبواب الجنة إلا وَجَدْتَه قد سبقك إليه يفتحه لك؟».

قال: يا نبيَّ الله، بل يسبقني إلى باب الجنة، فيَفْتَحُها لي لهو أحَبُّ إلي.

قال: «فذاك لك»[(١)].

يا لروعة الغرس ويا روعة الغارس! وعلى هذا تربى هذا الجيل..

على أن ما ينقص هنا يزيد هناك..

وما يؤلم اليوم يُريح غدا..

وما يوحِش دنيا يؤنِس آخرة..

ومن لم يكن هذا الميزان نصب عينيه تحطَّم عند الأعاصير، واستبطأ الفرج، وفقد إيمانه عند الشدائد.

وقد عقد الصحابي الجليل المبتلى **عمار بن ياسر** رضي الله عنه المقارنة بين المؤمن والفاجر في أثر البلاء عليهما، وكيف أبصر كل منهما المحنة، ثم قال:

«إنَّ المسلم يُبْتَلى ببلاءٍ فتُحَطُّ عنه ذنوبه كما يُحَطُّ الورق من الشَّجر، وإن كان الكافر -أو قال: الفاجر- يُبتلى ببلاء فمثَله مَثَل بعيرٍ أُطْلِق فلم يَدْرِ لم أُطْلِق، وعُقِل فلم يَدْرِ لم عُقِل»[(٢)].

فالفاجر لا يعلم لم نزلت به الشدة، ولا لم رُفِعت، فبصيرته مطموسة، وتحليله للأحداث مُشوَّش، ومقاييسه دنيوية لا يربطها بالآخرة نَسَب بعكس العبد المؤمن.

(١) صحيح النسائي عن قرة بن إياس كما في صحيح الجامع الصغير رقم: ٧٩٦٣
(٢) شعب الإيمان ١٢/ ٣١١

ولاية الله

واليته فوالاك، وآثرته فقدَّمك على غيرك وأعطاك.. وأين موالاتك له من موالاته لك.. وأين عطاؤك من عطائه! بل ما أعطيتَ إلا بإذنه، وما أقبلتَ إلا بأمره، ثم كافأك، وغمر إحسانه إحسانك، وقابل مشيك بهرولة.



في البخاري:

«إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه»[1].

والحديث معجز، وكيف لا وقد ضمَّ على قلة حروفه وجبة إيمانية متكاملة، فقد عرض لأسمى المقامات وأعلى الدرجات «مقام الولاية»، ثم شرح الطريق المؤدي إليها من بكل بلاغة ووضوح من «التمسك بالفرائض» و«المحافظة على النوافل»، ثم عرض إلى المكافأة العظمى التي يكافئ الله بها هذا العبد وهي «محبة الله له»، ووضع لك في الطريق علامات وصول واضحة إلى تلك المحبة وهي «صلاح جوارحك»، ثم ختم بالخاتمة الأروع والجائزة الأحلى: «إجابة دعائك».

فمن هم هؤلاء الصفوة الخُلَّص؟!

والزمرة الكُمَّل؟!

وما تعريف الولي؟!

الولي له معنيان:

الأول:

الوَلْيُ بسكون اللام هو القُرْب والدنو، وهو القرب المكاني أو المعنوي كما نقول أن الوالي ولي البلدة، وكما نطلق وليَّ اليتيم على الذي يلي أمره، وولي المرأة الذي يلي عقْد نكاحها، كما نُطلِق الولي أيضًا على الوالد والحليف والصِّهر والجار، وهي معان متقاربة.

فالولِي هو القريب من الله لتقربه إليه بامتثال أمره واجتناب نهيه، والمقرَّب من الملك هو من يطيعه في كل ما يريد ولو كان على حساب رفاهيته وراحته، فيؤثر هوى سيِّده على هواه،

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٧٨٢ والسلسلة الصحيحة رقم: ١٦٤٠

لذا استحق أن يكون من النخبة المقرَّبة والحاشية المدللة، ولذا جعل الله تعالى أهل القرآن هم أهله وخاصته! فإنه لما قرَّبهم اختصهم بالفضل العظيم بما لم ينله غيرهم، فكانوا كأهله.

الثاني:

الولي هو الناصر والكافي، ووليُّ الشيء: الذي يحفظه ويمنع عنه الضرر كقول ربنا: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فالله يتولى أمر هذه الطائفة، فلا يكلهم إلى نفوسهم لحظة، وإذا تولاك ربك فهل يستطيع أحد أن ينال منك؟! خاصة عند الشدة ونزول الكرب، وهو ما أيقن به **عمر بن عبد العزيز** لما دخل عليه مسلمة **بن عبد الملك** في مرض موته فقال: يا أمير المؤمنين لو وصيت إليَّ وإلى نظرائي من أهل بيتك، فقال عمر: أسندوني، ثم قال: أما قولك لو أوصيت بهم، فإن وصيي ووليي فيهم الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، بَنِيَّ أحد رجلين: إما رجل يتقي الله فسيجعل الله له مخرجا، وإما رجل مُكِبٌّ على المعاصي، فإني لم أكن أقويه على معاصي الله[1].

وكان لهذه الطائفة كرامة لا تعدلها كرامة: أن الله تعالى يشن الحرب من أجلهم، ويعادي من عاداهم! وليس ذلك فحسب بل و..

يغضب الله لغضبهم!

هذا **بلال وصهيب وسلمان** رضي الله عنهم؛ يمرُّ بهم **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه ومعه **أبو سفيان**، وكان **أبو سفيان** كافرًا لم يُسلم بعد[2]، وذلك أثناء الهدنة بعد صلح الحديبية، وكأنهم لما رأوه ذكروا ما فعله بهم أيام مكة من حرب وإيذاء، فقالوا مخاطبينه: ما أخذَتْ سيوف المسلمين من عنق عدو الله مأخذها «أي: لم تستوف حقها منك»، فغضب **أبو بكر** رضي الله عنه، وكان يتألف

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٣٧١ - ط دار الحديث

(٢) **الفائدة الأولى**: الفضل لمن صدق لا لمن سبق، فهذا **أبو سفيان** يسلم ويحسن إسلامه حتى يقول على فراش موته لمن حوله: «لا تبكوا عليَّ، فإني لم أتنطَّف (أتلطخ) بخطيئة منذ أسلمت». سير أعلام النبلاء ١/ ٢٠٤، ومثله في الصدق **عكرمة بن أبي جهل** الذي أراق النبي ﷺ دمه ولو تعلَّق بأستار الكعبة، فلما أسلم قال عنه **ابن كثير** العجب العجاب: «لا يُعرف له ذنبٌ بعد ما أسلم». البداية والنهاية ٧/ ١١

أبا سفيان طمعًا في إسلامه، ولا يريد تنفيره بإغلاظ القول له، فقال **أبوبكر**: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم! ثم أتى النَّبِي ﷺ شاكيًا، فأجابه النبي ﷺ:

«يا أبا بَكْرٍ، لئن كنتَ أغْضَبتَهم لقد أغْضَبْتَ ربَّك».

وما يبلغ البشر حتى يغضب الله لغضب واحد منهم؟! وماذا يساوون في ملك الله؟! وماذا يمثِّلون في مخلوقاته؟! ذرة أو جزء من ذرة!

لكنها والله الكرامة التي كرَّم الله بها أولياءه ممن آثر طاعته واختار مرضاته، وعندها أتاهم أبو بكر مسترضيًا قائلاً:

يا إخوتاه.. أغضبتكم؟! قالوا: لا.. يغفر الله لك يا أُخَيَّ[١].

وقد يكون هؤلاء الأولياء لا مظهر لهم ولا هيئة، ولا مال ولا جاه، ولعل أحدهم يكون مغمورا بين الناس لا يعرفه أحد، لكنه مشهور في الملأ الأعلى، وقد يخفَّ في موازين الخلق لكنه راجح عند الله، وانظر إلى أفضل الأولياء وأقربهم وأعلاهم شأنا عند ربهم كما في حديث **أبي أمامة** عن النبي ﷺ قال:

«أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ (خفيف الظَّهْر من العيال والمال)، ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضا في الناس، لا يُشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافا، فصبر على ذلك»، ثم نقَدَ بيده، فقال: **«عُجِّلَتْ مَنِيَّتُه، قَلَّتْ بواكيه (من يبكي عليه إذا مات)، قَلَّ تُراثه (ما تركه ميراثًا لورثته)»**[٢].

ينتقم ممن آذاهم

لما عودي إمام السنة **أحمد بن نصر** الذي صاحب **أحمد بن حنبل** انتقم الله من كل من آذاه وبصورة مذهلة، وذلك أن الخليفة الواثق وجد في نفسه حرجًا بعد قتل **أحمد بن نصر**، فلما

(١) صحيح: رواه مسلم عن عائذ بن عمرو كما في مشكاة المصابيح رقم: ٦٢١٤
(٢) حسن: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي أمامة كما في مشكاة المصابيح رقم: ٥١٨٩

دخل عليه **محمد بن عبد الملك الزيات** قال له: يا ابن عبد الملك، في قلبي من قتل أحمد بن نصر، فقال: يا أمير المؤمنين، أحرقني الله بالنار، إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا.

ودخل عليه **هرثمة**، فقال: يا هرثمة.. في قلبي من قتل أحمد بن نصر، فقال: يا أمير المؤمنين، قطَّعني الله إربا إربا، إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا.

ودخل عليه **أحمد بن أبي دؤاد**، فقال: يا أحمد.. في قلبي من قتل أحمد بن نصر، فقال: يا أمير المؤمنين، ضربني الله بالفالج، إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا.

قال الخليفة **المتوكل**:

«فأما الزيات، فأنا أحرقته بالنار، وأما هرثمة، فإنه هرب وتبدى، واجتاز بقبيلة خزاعة، فعرفه رجل في الحي، فقال: يا معشر خزاعة هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر. فقطعوه إربا إربا، وأما ابن أبي دؤاد، فقد سجنه الله في جلده»[1].

ويحميهم ويدفع عنهم!

محمد الدسوقي بقنينة داعية دمنهور والمحكوم عليه في سجون **عبد الناصر**، ونحسبه من هؤلاء الأولياء والخُلَّص الأتقياء، وكان معتقلا في سجن الواحاتن وكان السجن عبارة عن خيام متناثرة في صحراء قاحلة في الواحات، وتنتشر في هذه الصحراء الأفعى المصرية المعروفة باسم «الطريشة» القاتلة، وهو ثعبان خطير لا يمشي كبقية الثعابين؛ فالثعابين تترك أثرا على الأرض، أما الطريشة فهي تزحف على جنبها ولذا يسمونها في ليبيا "الجنابي"، وطولها أقل من ٧٠سم، ولها قرنان، وتدفن نفسها ولا يبقى منها إلا القرنان، ولذلك تسمى أيضًا بالدفين، ومن خصائصها أنها تستطيع القفز لعده أمتار وإصابة من يقترب منها، وسمها قاتل ولا مصل لها حيث تستطيع قتل الإنسان خلال دقائق، ولم يكن له علاج غير بتر الجزء المصاب لإيقاف انتشار السم والنجاة! وبات الإخوان ليلتهم قد جهَّز كل واحد منهم وصيته، واستعدوا لاستقبال ملك الموت.

---

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال ١/ ٥١٠-٥١١- الحافظ المزي - ط مؤسسة الرسالة - بيروت



في اليوم الأول هاجمت الطريشة أحد العساكر، ومات قبل أن يتم إسعافه، ودنا ملك الموت من المعسكر واقترب من المعتقلين، وجاء الهجوم في اليوم التالي على الأخ **محمد الدسوقي بقنينة**، وفزع إخوانه من حوله، يحاولون بتر قدمه المصابة، وعمَّ البكاء المكان، وبمرور الوقت لم يمت الأخ، بل وحدث ما هو أعجب! مما لا يتصوره عقل ويخرق كل عادة، عاش الأخ ومات القاتل.. نعم ماتت «الطريشة».. وصارت جثة هامدة![1].

أهي كرامة الرجل صالح..

أم ثأر الله ممن هاجم أولياءه..

أم تثبيت لقلوب العاملين المصلحين..

أم هي كل هذا في خطوة واحدة؟!

ولذا ما كان غريبا أن يتوعَّد المجاهد المغربي **عبد الكريم الخطابي** بوعيد الله من قتل أحد أولياء الله وسفك دمه، فقال في رثاء الإمام **البنا** بعد استشهاده:

«يا ويح مصر والمصريين مما سيأتيهم من قتل البنا! قتلوا وليًّا من أولياء الله، وإن لم يكن البنا وليًّا فليس لله ولي».

جسر الوصول؟!

وبعد عرض هذا الفضل العظيم والإشارة إلى المقام الجليل، فإن للنفس أن تستشرف إلى بلوغ هذه الرتبة السامية، ولتدفع في سبيل ذلك كل ما تستطيع لتكون من هذه الصفوة المميزة، ومن طلب الحسناءَ لم يُغلِه المهر، ولا بد دون الشهد من إبر النحل، ومن رام المعالي سهر الليالي، وبقدر المشقة والعناء تكون حلاوة اللقاء، وطريق الوصول إلى الولاية ملخص في كلمتين:

استمساك بالفرائض، وحفاظ على النوافل.

(١) من مذكرات غير منشورة للحاج علي نويتو أحد الرعيل الأول لجماعة الإخوان المسلمين.

لا تُقاس الأعمال يوم القيامة بالكثرة والعدد، وإنما توزن بحسب شرفها وفضلها، وتأمَّل أن من مراحل الحساب «الميزان» وليس «العدَّاد»، فالحسنات توزن ولا تُعَدُّ، فرُبَّ حسنة أثقل في ميزان العبد من آلاف الحسنات، ومما لا شك فيه أن من أثقل حسنات العبد: الفرائض، فهي أثقل في ميزان العبد من النافلة، وأحب إلى ربنا وأقرب، بل إنه سبحانه لا يقبل النافلة حتى تؤدَّى الفريضة، فالفريضة أساس، والعاقل من بدأ بالأساس ليشيد عليه بنيانه وإلا انهار، ولذا قال **ابن هبيرة**:

«إنما سُمِّيت نافلة لأنها تأتي زائدة على الفريضة، فما لم تؤد الفريضة لا تحصل النافلة»[١].

لكن لهذه الفرائض مواقيت محددة، لا يقبلها الله أن تؤدّى إلا فيها، ولهذا لما حضر **أبا بكر الصديق** الموت دعا **عمر بن الخطاب** وأوصاه:

«اتق الله يا عمر! واعلم أن لله عملا بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار»[٢].

وقد عدَّ **ابن عطاء** تقديم النفل على الفرض من علامات اتباع الهوى فقال:

«من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل على القيام بالواجبات»[٣].

واعتبره **أبو حامد الغزالي** من علامات المغرورين حتى قال:

«وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الغرور»[٤].

ولا يُتصوَّر أن يفرِّط رجلٌ في الفريضة بينما هو مُجِدٌّ في النافلة، فالمثقل بالديون لا يتصدق، والمثخن بالجراح لا يداوي المصابين، وكذلك المثقل بانتقاص فرائضه.. المصاب بجراحات قلبه لا يتطوع بالنوافل حتى يبرأ.

ولذا نصب **عبد الله بن المبارك** ميزان التفاضل بين النافلة والفريضة بين عينيه، فلم يخدعه

(١) فتح الباري ١١/ ٣٤٣
(٢) صفة الصفوة ١/ ١٠٠
(٣) حكم ابن عطاء
(٤) أصناف المغرورين ١/ ٥٩

الشيطان يـــومًا بمكيـــدة، ولم يستـــدرجه بحيلة، واسمع إلى فهمه ووضوح رؤيته حين قال:

«لأن أردَّ درهما من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف، حتى بلغ ستمائة ألف»(١).

وهو درهم شبهة فكيف لو كان حراما؟! وذلك أن التعفف عن درهمٍ حرام فريضة، بينما التصدق بست مائة ألف نافلة، والفريضة فوق النافلة، ولذا صبَّ **الحسن البصري** جام غضبه على الظلمة المتصدقين! فقال:

«أيها المتصدِّق على المسكين ترحمه.. ارحم من ظلمت!!»(٢).

ومن بعـــده حـــذَّرك **وهيب بن الورد** من تضييع هـــذه الفريضـــة «أكل الحلال» فصارحك:

«لو قمتَ قيام هذه السارية ما نفعك حتى تنظر ما يدخل بطنك حلال أم حرام»(٣).

ولهذا أولى الصالحون الفريضة الأهمية الأكبر والحرص الأشد، فقد روى **هشام بن عروة** عن أبيه أنه كان يطيل الصلاة المكتوبة أكثر من غيرها من النوافل قائلاً:

«هي رأس المال»(٤).

ولذا جعلوا أكثر دعائهم وأطوله وأخشعه في صلاة الفريضة، فهذا **عون بن عبد الله** يقول في وصية ثمينة:

«اجعلوا حوائجكم اللاتي تُهِمُّكم في الصلاة المكتوبة؛ فإن الدعاء فيها كفضلها على النافلة»(٥).

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٣٢٦ – ط دار الحديث
(٢) الإشراف في منازل الأشراف ١٤٥ ط مكتبة الرشد – الرياض – السعودية
(٣) حلية الأولياء ٨/ ١٥٤
(٤) تاريخ بغداد ٨/ ٢٥١
(٥) حلية الأولياء ٤/ ٢٥٣

جناحا الفرائض

والفرائض قسمان: أوامر ونواهي، فكل ما أمر الله به أو نهى عنه صار ملزمًا لكل مسلم، ولهذا لما خطب **عمر بن عبد العزيز** يومًا قال:

«أفضل العبادة: أداء الفرائض واجتناب المحارم»(١).

ومن أهم المحارم والنواهي اليوم:

* آفات اللسان من كذب وغيبة ونميمة وسباب ولعن.
* وآفات السمع وهي بالإصغاء إلى كل ما حُرِّم التحدث به دون إنكار.
* وآفات القلب من خيانة وكبر وعُجب وحسد وحقد وغرور.

وخذ مثلاً لخطورة بعض هذه المناهي القلبية، والتي يُعتبر التخلص منها من أهم الفرائض، وليستقبل قلبك هذه الصدمة في ثنايا قول **ابن تيمية** حين صرَّح قائلاً:

«ومعصيةُ الكِبْر والعُجْب والرياء أعظمُ من معصية شُرْب الخمر، فالشارب الخاشع الخائف من ربه أقرب إلى رحمة ربه من الصائم المتكبِّر المُعْجَب المُرائي»(٢).

ومن اجتنب النواهي فقد استحق أن يحوز بجدارة لقب «أعبد الناس»، وهو وسام الشرف الذي قلَّده إياه سيد المرسلين وشامة الخلق أجمعين حين قال ﷺ:

«اتق المحارم تكن أعبد الناس»(٣).

وهذا هو فقه تفاضل الأعمال الذي توارثه العلماء الربانيون، ومنهم معاوية بن قُرَّة المزني العالم الرباني الذي تخرج من مدرسة الصحابة حتى أدرك سبعين من أصحاب النبي ﷺ، ومنهم تعلَّم خلاصة القول الذي أتحَفَنا به في مجلس من مجالسه مع الحسن البصري، فقال:

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٦

(٢) الرد على الشاذلي في حزبيه وما صنفه في آداب الطريق- أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية - ١/ ٦٥- ط دار عالم الفوائد

(٣) حسن: رواه أحمد والترمذي والبيهقي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٠٠.

كنا عند الحسن فتذاكرنا أي العمل أفضل؟ فكلهم اتفقوا على قيام الليل، فقلتُ أنا: ترك المحارم، فانتبه لها **الحسن**، فقال:

«تمَّ الأمر، تمَّ الأمر»[1].

ولهذا تشدَّد الوُعاظ في اجتناب ما ينهون الناس عنه أكثر مما يأمرونهم به، وقد نطق بذلك النهج والطريقة **مالك بن دينار** حين قال:

«إنِّي آمُرُكم بأشياء لا يبْلُغُها عملي، ولكن إذا نهيتكم عن شيء، ثُمَّ خالفتكم إليه فأنا يوْمئذٍ كذَّاب»[2].

وما هذا إلا لأنهم امتثلوا أمر نبيهم حين حدَّد واجب كل مسلم تجاه جناحي الفرائض: الأوامر والنواهي، فقال:

«ما نهيتُكُم عنه فاجتنبوه، وما أمرتُكم به فافعلوا منه ما استطعتم»[3].

قال بعضُ العلماء ومنهم الإمام **أحمد**:

«هذا يُؤْخَذُ منه أنَّ النَّهي أشدُّ من الأمر، لأنَّ النَّهي لم يُرَخَّصْ في ارتكاب شيءٍ منه، والأمر قُيِّدَ بحسب الاستطاعة»[4].

وفي الحديث لمسة تربوية ولمحة نفسية هامة أنه لا تدرج في اجتناب الحرام، بل ليس غير الحسم والفصل، ولو تركت باب الحرام مفتوحًا لغزَا الشيطان القلب وعشَّش فيه، ولذا كان الأمر النبوي جازمًا:

«فاجتنبوه».

ويحوز العبد درجة الصديقية إذا واظب على اجتناب الحرام، وهي مشاهدة تحليلية رصدها بدقة **سهل التستري** في سلوكيات الأبرار والفجار، ثم قام بتسجيل شهادته في

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٥١
(٢) حلية الأولياء٢/ ٣٧٩
(٣) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٨١٠ ومختصر مسلم رقم: ١٦٠١.
(٤) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٥٢.

سطر واحد نقله إلينا كتاب حلية الأولياء:

«أعمال البِرِّ يعملُها البَرُّ والفاجر، وأمَّا المعاصي فلا يتركها إلاَّ صِدِّيق »[١].

وما أحلى قول أم المؤمنين **عائشة** رضي الله عنها حين همست في آذان المتسابقين نحو الفردوس بوصية ثمينة لتضع أقدامهم في مصاف السابقين، وتأخذ بأيديهم إلى أوائل صفوف أهل الجنة، فقالت:

«من سرَّه أن يسبق الدائب المجتهد فليكف نفسه عن الذنوب؛ فإنكم لن تلقوا الله بشيء خير لكم من قلة الذنوب»[٢].

ومن نماذج الفرائض الغائبة اليوم العدل! ومنها عدل كل راعٍ في رعيته، سواء كانت رعيته عامة كالحاكم أو الوزير أو المحافظ، أو خاصة كعدل آحادٍ الناس في أهله وولده، وقد يكون هذا العدل أرجح في ميزانه وأثقل من عبادات أخرى كثيرة وتستغرق سنين طويلة، وقد أبان هذا **ابن القيم** حين بيَّن أن العمل المعين قد يكون أفضل من رجل منه في حق غيره، فقال:

«وولي الامر الذى قد نصَّبه الله للحكم بين عباده جلوسه ساعة للنظر في المظالم وانصاف المظلوم من الظالم واقامة الحدود ونصر المحق وقمع المبطل أفضل من عبادة سنين من غيره»[٣].

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٢١١.

(٢) كتاب الزهد ١-٢٢ ط دار الكتب العلمية.

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ١/ ١١٤-١١٥ - دار ابن كثير بيروت. **الفائدة الثانية:** وضرب **ابن القيم** أمثلة أخرى: «فالغنى الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شئ منه فصدقته وايثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة، والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته وقوفه في الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع، والعالم الذى قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح». عدة الصابرين ١/ ١١٤-١١٥.



في منتصف الطريق!

وبالاستمساك بالفرائض تكون الطريق قد انتصفت بك، ولاحت لك في نهايتها رايات المحبة وشارات القُرب، لتوقد في قلبك نار الشوق، وتجدِّد فيك بوادر العزم الذي يقطع المسافة المتبقية نحو النعيم المرتقب والجنة الكبرى، مما يسهِّل عليك المتابعة ويخفِّف عنك حدة السير.

لكن مركب القلب وهو في خضم هذه المرحلة محتاجٌ إلى زاد، وليس زادٌ مثل الصدق، والصدق علامته الثبات، لذا جاء في تعريف الولي كما في قاموس **ابن حجر العسقلاني**:

«المُرَاد بولِي الله: العالم بالله تعالى.. المواظب على طاعته.. المخلص في عبادته»[1].

لكن المواظبة شرط!

وليس أي نافلة! بل مع النافلة شرط لازم وهو المواظبة، وإلا فما أيسر عمل يوم أو يومين أو أسبوع إلى أسبوعين! وقوله «**وما يزال**» أفاد أن العبد لا يزال يتقرب إلى ربه تعالى بالنوافل «**حتى**» يحبه الله عزّ وجل، و«**حتى**» للغاية، فلا وصول إلى هذه المحبة بغير الإصرار، بل ولا استنارة لقلب من القلوب بغير الاستمرار، ولهذا قال زاهد العصر **أبو سليمان الداراني** متحدِّثًا عن أثر المداومة على إنارة القلوب:

«وللمداومة ثواب، وإنما أنا وأنت ممن يقوم ليلة وينام ليلتين، ويصوم يوما ويفطر يومين، وليس تستنير القلوب على هذا»[2].

لكن لماذا لا يستمر العبد على ما هداه الله إليه ويحافظ عليه؟

إنها التركة التي ورثناها من أبينا آدم عليه السلام، وسببها إما النسيان الذي جُبِل عليه

---

(١) فتح الباري ١١/ ٣٤٢ - ط دار المعرفة.
(٢) حلية الأولياء ٩/ ٢٧١ - ط دار الكتب العلمية.

الإنسان، وإما ضعف العزم كما قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، وقد قيل: من شابه أباه فما ظلم!

لكن الله لمعرفته بطبعك وإحاطته بضعفك، قد أغراك بالاستمرار والمداومة عن طريق جائزة تخلب العقول والأبصار!

وهل أروع من محبة الله لعبد من عباده؟!

وإنه لأمر هائلٌ لا يتصوره عقل، وفضل غامر جزيل على قدر جلال الله وعظمته، ولا يعرف هذا إلا قلبُ مؤمنٍ عارفٍ بربه.

وهو ارتقاء جليل، فإذا كان الله قد أحب عملك عن طريق الفريضة:

«وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضتُ عليه»..

فقد أحبك أنت عن طريق النافلة:

«ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه».

فكأنه ارتقاء من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان.

والسؤال هنا:

لم كانت النوافل جسر الوصول إلى محبة الله دون الفرائض؟

ولم لا ينهض طائر المحبة بغير جناحي النافلة؟!

وأجابوا على ذلك بأن العبد يؤدي الفريضة مخافة العقوبة، أما النافلة فيفعلها بنية التقرب إلى الله عز وجل، فإذا خلصت النية في النافلة كانت هي السبب الموصل إلى المحبة دون الفرائض.

وخذ هذا المثل للتقريب:

لو أن خادمًا لديك لا يعصي لك أمرًا، بل ويعرف كل مواضع غضبك فيتقيها، ومواضع رضاك فيحرص عليها، ألا يستحق ذلك منك أن تعطيه أجره كاملاً غير منقوص؟

فكيف لو كان هذا الخادم أكثر ذكاء وفطنة، فصار يفعل ما تحب قبل أن تأمره به، واجتنب ما تكره من غير أن تنهاه، فكيف تكون محبتك له ومكافأته لصنيعه؟! وكيف لو طالبك بعدها بزيادة أجره، ألا تفعل هذا عن طيب خاطر وسماحة نفس؟!

والله تعالى أعلى وأجل، فأملنا في ربنا أكبر لأنه أكرم الأكرمين، ونحن لرحمته أرجى لأنه الذي وصف نفسه بأرحم الراحمين.

التربية بالقدوة!

ولهذا كانت التربية النبوية العملية على الثبات على الطاعة مهما حصل، فلقد وصفت **عائشة** رضي الله عنها رسول الله ﷺ بقولها: «**كان إذا عمل عملا أثبته**»[١]، وما هذا إلا ليعلِّمنا اقتفاء الأثر واتباع السنن، لننهل من هذه العزمة النبوية لا تبغي عنها حولا، ثم روت لنا أمنا **عائشة** ما يعضِّد شهادتها ويُتمُّ روايتها، فقالت:

«**كان لا يدع قيام الليل وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعدا**»[٢].

لكن ماذا إذا نام أو مرض؟!

أيدع النافلة بعد أن حافظ عليها؟!

كلا والله، واسمع تتمة الشهادة وشرحها:

«**وكان إذا نام من اللَّيل أو مرض صلَّى من النَّهار ثنتي عشْرة ركعة**»[٣].

ومن حرص النبي ﷺ على المحافظة على ما بدأ من طاعات أنه كان إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بالمعوِّذات، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده، فماذا فعل لما اشتد مرضه؟! تكمل أم المؤمنين وحبيبة رسول الله ﷺ شهادتها الشاملة فتقول:

(١) صحيح: رواه مسلم وأبو داود عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧٥٦.
(٢) صحيح: رواه أبو داود والحاكم عن عائشة كما في صحيح أبي داود رقم: ١١٨٠.
(٣) صحيح: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان رقم: ٢٦٣٥.

«فلما اشتكى النبي ﷺ وجعه الذي توفي فيه طفقتُ أنفث عليه بالمعوِّذات التي كان ينفث بها على نفسه، وأمسح بيد النبي ﷺ عنه»[١].

واسمع وصية **الداراني أبي سليمان** يشرح بها ما فعل نبيك فيقول:

«إذا فاتك شيء من التطوع فاقضِ، فهو أحرى أن لا تعود إلى تركه»[٢].

وهي وصيةٌ لها أثر نفسي رائع في تعويدك التمام واستدراك الفائت وتعويض ما ضاع منك، فتربى على عدم التفريط في ما اعتدت من خير، ولو عن طريق القضاء، وهو ما يأخذ بيديك نحو المعالي وتحصيل الغالي.

نبوغ التلامذة!

وتعلَّم الأفذاذ الدرس، فهُم النجباء وصفوة الأمناء من ورثة الأنبياء، فنفَّذوا الأمر بكل دقة ولم يتهاونوا فيه حتى في أحلك الظروف، ولو كان هذا في أتون معركة ومعمعة قتال! لما أوصى النبي ﷺ **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه وابنته فاطمة أن يكبِّرا عند نومهما أربعًا وثلاثين، ويسبِّحا ثلاثًا وثلاثين، ويحمداه ثلاثًا وثلاثين، فما تركها **علي وفاطمة** حتى قال: ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ ولا ليلة صفين![٣]، يعلِّمنا بذلك الاعتذار للأعذار وعدم الإصغاء لداعي الكسل والفتور تحت أي ظرف.

وكيف لا وقد تخرَّج في جامعة النبوة؟! ومن دروسها:

لما كان الذكر أشرف العبادات وأزكاها؛ كانت المداومة عليه من أشرف الأعمال[٤]، ولذا ربانا رسول الله ﷺ على أن لا نَدَع ذكرا من الأذكار بدأناه، فإن ذلك يحقق مقاصد الذكر

---

(١) صحيح: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان رقم: ٦٥٥٦ والسلسلة الصحيحة رقم: ٣١٠٤، وإنما نفثت في كف النبي ﷺ لأنها أعظم بركة من يدها.

(٢) حلية الأولياء ٩/ ٢٦١

(٣) صحيح: رواه البخاري عن عائشة كما في صحيح الكلم الطيب رقم: ٣٥

(٤) **الفائدة الثالثة**: من أقصر الطرق المؤدية إلى محبة الله: مداومة الذكر. قال **ابن القيم**: «وقد جعل الله لكل شيء سببا، وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل فليلهج بذكره». الوابل الصيب ص ٦١.

الحقيقية من حفظ حدود الله وتذكر أوامره في سائر الأحوال والأحيان، وكان ﷺ خير قدوة وأعظم مَثَل في هذه المداومة والثبات حتى أقسم وهو أصدق الخلق:

«والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[١].

ثم قال ﷺ مؤكِّدًا ومستخدمًا أسلوب الحصر والقصر:

«ما أصبحتُ غداة قط إلا استغفرتُ الله تعالى فيها مائة مرة»[٢].

الانسجام الزماني!

وفي خطوة تعينك على مداومة عملك، وتشجِّعك على المحافظة عليه، جعل الله لك الزمان منسجما مع بعضه، فلا يكون تميز يوم مثل يوم الجمعة، وأفضلية شهر كشهر رمضان؛ داعيا للانقطاع عن العمل الصالح في غيرهما من المواسم.

وهذه نماذج على هذا الانسجام الزماني:

إذا كان في يوم الجمعة ساعة إجابة[٣]، فقد جعل الله لك في كلِّ ليلة ساعة إجابة[٤] كما في البشارة النبوية:

«إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم؛ يسأل الله تعالى فيها خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كلَّ ليلة»[٥].

إذا كان الله قد اختص شهر رمضان بكرامة الصيام، فقد شرع لك بعده صيام ستٍّ من

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٠٩١.

(٢) صحيح: رواه الطبراني عن أبي موسى كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٣٤ والسلسلة الصحيحة رقم: ١٦٠٠

(٣) في الصحيح: **«يوم الجمعة ثنتا عشرة ساعة، منها ساعة لا يوجد عبد مسلم يسأل الله فيها شيئا إلا آتاه الله إياه، فالتمسوها آخرَ ساعة بعد العصر»**. صحيح: رواه أبو داود والنسائي والحاكم عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٨١٩٠

(٤) **الفائدة الرابعة: قال الإمام النووي:** «إثبات ساعة الإجابة في كل ليلة، ويتضمن الحث على الدعاء في جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها». شرح النووي ٦/ ٣٦

(٥) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٢١٣٠

شوال، وسرعان ما تزورك بعدها تسعَ ذي الحجة فيُستحبُّ صيامها، ثم يعاجلك شهرُ الله المحرم، وصيامه أحب الصيام إلى الله، وكل هذا ليغريك بمداومة الصوم.

ومن هذا أن النبي ﷺ كان أكثر الناس صيامًا في شعبان، ولما سُئل عن هذا أخبرهم أنه شهرٌ بين رجب ورمضان يغفل عنه كثير من الناس، فأحب أن يعمر هذا الشهر بالصيام، ليستمر فيه البذل، ولا يكون أقل شأنا من غيره من أشهر العام.

وبذا ترى «الانسجام الزماني» خيرَ عونٍ لك على بقاء شعلة العزم متقدة في قلبك، فلا تنشط في يوم دون يوم، أو شهر دون آخر، فتواكب الزمن، وتتصالح معه ولا تصادمه، وما ذلك إلا بالمداومة والاستمرار على ما رزقك الله من طاعات وقُرُبات.

والتوازن البيئي!

ومما يعينك على استمرار عملك الصالح أن تشعر أن كل من حولك خاضع لربك طائع له، ولذا كان **ماهان** يقول:

«أما يستحي أحدكم أن تكون دابته التي يركب، وثوبه الذي يلبس أكثر لله منه ذكرًا»، فكان لا يفتر من التكبير والتهليل»[1].

إن المؤمن الحق يشعر أنه بعمله الصالح يتناغم مع هذا الكون الفسيح.. مع جماده وأحيائه.. أرضه وسمائه، فإذا واظبت على صلاحك، فأنت بذاك تساير منظومة متكاملة، وتعيش في سلام وسكينة مع هــذا الكون المسخــر لطاعة الله[2]. أما إذا انقطعت فقد تعطل عملك في هذه الآلة الكونية الضخمة، ويوشك أن تؤثِّر سلبا على منظومة الحياة

---

(١) **الفائدة الخامسة**: وبكثرة ذكره كانت روعة خاتمته! في صفة الصفوة ٢/ ٤٢ عن **إبراهيم** مؤذن بني حنيفة: رأيتُ **ماهان الحنفي** وأمر به **الحجاج** أن يُصلب على بابه، فنظرتُ إليه وإنه لعلى الخشبة وهو يسبح ويكبر ويهلل ويحمد الله حتى بلغ تسعا وعشرين، فعقد بيده، فطعنه وهو على ذلك الحال، فلقد رأيته بعد شهر معقودا تسعا وعشرين بيده. قال: وكان يُرى عنده الضوء بالليل شبه السراج!

(٢) في الحديث الحسن: «**ليس شيء إلا وهو أطوع لله تعالى من ابن آدم**». رواه البزار عن بريدة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٣٩٣

بأسرها.

أثر الانقطاع مرعب!

وقد نهى النبي ﷺ عن الانقطاع عن العمل وحذَّر من خطورته، ولذا أوصى **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنهما مشجِّعا:

«لا تكن مثل فلان؛ كان يقوم الليل، فترك قيام الليل»[١].

ولأجل هذا وجَّهك النابهون من أطباء القلوب لحرصهم عليك، وأخذوا يحثونك عن سابق تجربة، وفي نبرة تحمل صيغة الأمر:

اجعل النوافل فرائض والمعاصي كفرا!

وما هذا إلا لأنهم رأوها الطريق الوحيدة الموصلة، والسكة المختصرة المبهجة، فلا وصول إلى لذة العبادة إلا بالمداومة، واعلم أن كلَّ طاعة لا لذة معها فمآلها إلى انقطاع! أكرِّر:

كلَّ طاعة لا لذة معها فمآلها إلى انقطاع!

ولذا تعجَّبوا غاية التعجب ممن حاز الكنز ثم فقده، وبلغ القمة وانزلق عنها، فاستبدل الخبيث بالطيب، واختار الرخيص بعدما تمتَّع بالنفيس، فقال **أبو سليمان الداراني**:

«ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة، إنما العجب ممن وَجَد لذتها ثم تركها كيف صبر عنها»[٢].

من أجل هذا كان الوصول إلى لذة العبادة هدف كل مؤمن، وأول طريق العبادة المجاهدة، وفي المنتصف يأتي الإلف والاعتياد، ومع الاستمرار ينتظرك في النهاية بحر اللذة الغامرة، ومن انقطع بعد ابتداء فقد نكص على عقبيه، وضحى بما سعى إليه، أما من داوم

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن عبد الله بن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٧٩٤٥.
(٢) حلية الأولياء ٩/ ٢٦٢.

على الطاعة وصبر عليها وصل ولابد إلى شاطئ الجنة الدنيوية، فهل عرفت الآن لم كان أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ؟

لكن..

ما وجه الخطورة في ترك النافلة وهي التي لا يأثم تاركها؟

والجواب تجده في..

قلاع النوافل الحصينة!

الخطورة يا أخي هي في اجتراء الشيطان عليك، واقترابه من سياج فرائضك، فالنوافل سور واقي وقلعة منيعة، تمنع تسلل العدو إلى أرض الفريضة، وتحول دون انتهاب اللص من كنزها الثمين[١]، فإذا اقترب منك العدو ارتد خاسئا وقد هاله قوة تسلحك وأرهبه أُهْبَةاستعدادك، وما هذا إلا بسلاح النافلة ودرعها المتين.

وهذا ما يضمن لك الفوز في المعركة لأن من استمسك بالفرائض وحدها إن اعترته نوبة فتور، فسوف ينتقص عدوه من الفريضة ليُسقطه في الحرام، أما من كان له رصيد من نافلة، فهذا ينتهب من نافلته عند فتوره دون أي مساس بالفريضة «الأساس»، فينجو من هذه المهلكة، لذا شُرِعت النوافل لجبر الفرائض.

وفي الحديث ما يعضِّد هذا المعنى حيث يقول الله لملائكته حين يحاسب العبد عن صلاته يوم القيامة:

«انظروا.. هل تجدون لعبدي من تطوع فتُكملون بها فريضته؟ ثم الزكاة كذلك، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك»[٢].

ولاحظ قوله: **«ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك»**، فكل فريضة لها نافلتها:

---

(١) **الفائدة السادسة**: يرى **ابن القيِّم** أن فعل الطاعة يطرد المعصية، والمعروف يزيح المنكر، فيقول: «أصل الذنوب هو عدم الواجبات لا فعل المحرمات». المدارج ٢/ ١٥٦

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبوداود وابن ماجة والحاكم عن تميم الداري كما في صحيح الجامع رقم: ٢٥٧٤.



- الصلوات الخمس نافلتها قيام الليل والضحى والوتر والسنن الرواتب.
- والزكاة نافلتها الصدقة والقرض الحسن[١]، بل وإسقاط الدين[٢].
- وصوم رمضان نافلته صيام التطوع ابتداء من الثلاث البيض[٣] ووصولًا إلى يومي الاثنين والخميس، وغير ذلك من أيام العام المتفرقة كيوم عرفة وعاشوراء.
- والحج نافلته الاعتمار أو الحجُّ عن غيرك.

وبهذا تتضح أمامك خارطة الطريق بصورة أشمل، لتزيدك تفاؤلا بقرب الوصول ونسائم القبول.

النافلة الأروع!

ومن النوافل الغامضة المقدَّمة على غيرها من نوافل العبادات: طلب العلم، ففي الحديث الصحيح الصريح:

«فضل العلم أحبُّ إلي من فضل العبادة»[٤].

(١) **الفائدة السابعة**: الإقراض رآه بعض الصحابة والسلف أفضل من الصدقة لقول النبي ﷺ: «**من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحلَّ الديْن، فإذا حلَّ الديْن فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة**». رواه أحمد وابن ماجة عن بريدة كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٠٨. قال **السبكي**: «وزَّع أجره على الأيام، يكثر بكثرتها ويقلُّ بقلتها، وسِرُّه ما يقاسيه المُنْظِر من ألم الصبر مع تشوق القلب لماله، فلذلك كان ينال كل يوم عوضا جديدا». فيض القدير ٦/ ٩٠.

(٢) روى أحمد ومسلم عن أبي قتادة: «**من نفَّس عن غريمه** (بأن أخَّر مطالبته) **أو محا عنه** (أسقط عنه الديْن) **كان في ظلِّ العرش يوم القيامة**». ص ج ص رقم: ٦٥٧٦. **الفائدة الثامنة**: قال **المناوي**: «لأن الإعسار من أعظم كُرَبِ الدنيا بل هو أعظمها، فجوزي من نفَّس عن أحدٍ من عيال المعسرين بتفريج أعظم كُرَب الآخرة، وهو هول الموقف وشدائده بالإزاحة من ذلك، ورفعته إلى أشرف المقامات، ثم قالوا: وقد يكون ثواب المندوب أكمل من ثواب الواجب». فيض القدير ٦/ ٣٠٣.

(٣) لقول النبي ﷺ: «**من صام ثلاثة أيام من كل شهر، فقد صام الدهر كله**». رواه أحمد والترمذي والنسائي عن أبي ذر كما في صحيح الجامع رقم: ٦٣٢٤، وفي حديث آخر حدَّدها بقوله: «**صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر، وهي أيام البيض: صبيحة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة**» رواه النسائي والبيهقي عن جرير، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم: ٣٨٤٩.

(٤) صحيح: رواه البزار والطبراني في الأوسط والحاكم عن حذيفة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٢١٤. **الفائدة التاسعة**: قال **ابن تيمية**: «الأجر على قدر منفعة العمل ومصلحته وفائدته». مجموع الفتاوى ٢٥/ ٢٨١.

وفهم **أبو الدرداء** رضي الله عنه الرسالة ووعى الدرس فانطلق يعلِّمنا أحد مقاييس تفاضل الأعمال ويقول:

«لأن أتعلم مسألة أحب إليَّ من قيام ليلة»[١].

وجزم اثنان من سادة العلماء الأتقياء مثل **سفيان الثوري والشافعي** أنه:

«ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم»[٢].

بل جعل **ابن الجوزي** أولَ تلبيس إبليس على العُبّاد إيثارَهم التعبد على العلم، ثم ساق قول إمام البصرة **مطرِّف بن عبد الله**: فضل العلم خير من فضل العبادة، وقول عابد الشام **يوسف بن أسباط**: باب من العلم تتعلمه أفضل من سبعين غزاة، وقول ياقوتة العراق **المعافى بن عمران**: كتابة حديث واحد أحب إلي من صلاة ليلة[٣].

واسمع قول **بدر الدين بن جماعة** يُتحف به طلبة العلم المخلصين، ويسرُد لهم ستة أسباب يدلِّل بها على أفضلية طلب العلم والانشغال به عن غيره من نوافل العبادات:

«إن الاشتغال بالعلم لله أفضل من نوافل العبادات البدنية من صلاة وصيام وتسبيح ودعاء ونحو ذلك،

لأن نفع العلم يعُمُّ صاحبه والناس، والنوافل البدنية مقصورة على صاحبها.

ولأن العلم مصحِّح لغيره من العبادات، فهي تفتقر إليه وتتوقف عليه ولا يتوقف هو عليها.

ولأن العلماء ورثة الأنبياء -عليهم الصلاة والتسليم- وليس ذلك للمتعبِّدين.

ولأن طاعة العالم واجبة على غيره فيه.

ولأن العلم يبقى أثره بعد موت صاحبه، وغيره من النوافل تنقطع بموت صاحبها.

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٩.
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٢٣-١٢٤.
(٣) تلبيس إبليس ص ١٢١ - ابن الجوزي - ط دار الفكر.

ولأن في بقاء العلم إحياء الشريعة وحفظ معالم الملة»[١].

علامة الوصول!

لكن ما علامات وصولك إلى درجة «المحبة» السامية وارتقائك هذا المرتقى الشريف؟

اسمع!

العلامة:

كنت سمعه وبصره ورجله ويده!

○ **فسمعك** يأتمر بأمر ربه لا بأمر شيطان مريد أو نفس أمارة بالسوء، ولما كان كلُّ ما مرَّ بسمعك ينسكب في قلبك الحي، كنتَ حازما حيال ما خالف أمر الله وطرحتَه ومضيت، فلم تقبل أذُنك إلا الحق، وأي فكرة باطلة أو منهج منحرف وجدت آذانا صُمًّا وقلوبًا غُلفًا.

○ **وبصرك** يصبح ذا بصيرة، فلا تحدِّث نفسك باختلاس نظر إلى محرَّم، بل وتترقى! فتعود ترى الأمور بعين الآخرة، فكل ما زاد رصيدك في الآخرة فهو جميل، وكل ما خفَّف ميزانك فهو البشع القبيح، وهذا لأنك غضضت بصرك فأطلق الله بصيرتك، كما أن غيرك أطلق بصره فعوقِب بعمى قلبه وبصيرته.

○ **ورِجلك** تسعى لما يُرضي ربك، وتتسابق في قضاء مصالح الخلق وإرضاء الحق، وتمضي في دروب الدعوة وسكك المعروف، ولا تهوي بك في مهاوي الشر أو نصرة ظالم أو ساحة عصيان.

○ **ويدك** تكتب وتعمل وتحمل في سبيل الله، بل وتأخذ على يد الظالم، وتمتد عونًا للملهوف والمكروب، ولا تبطش عدوانًا وظلمًا، ولا تمس حرامًا، ولا تسرق أو تخون.

---

(١) تذكرة السامع ص ١٣. **الفائدة العاشرة**: قال ابن حزم: «الباخل بالعلم ألأم من الباخل بالمال لأن الباخل بالمال أشفق من فناء ما بيده، والباخل بالعلم بخل بما لا يفنى على النَّفقة، ولا يُفارقه مع البذل». الأخلاق والسير ١/ ٢٢.

وعندها تكون عبدًا ربانيًا بحق، مصنوعًا على عين الله، فلا تعود ترنو إلا إلى ما يحب ربك، وتتجافى عن كل ما يكره، بعد أن استغنيت بالحلال عن الحرام، وتلذَّذت بالقرب منه بدلا من غيره، وهو ما يحل الإشكالية العويصة التي يقابلها الكثيرون في الثبات على الطاعات والتذبذب بين الحسنات والسيئات، فبلوغ منزلة المحبة يضمن لك عدم التذبذب والانتكاس، وهو الجوهر المنشود والكنز المفقود في زمن انتشرت فيه الفتن والمغريات بين الناس.

ويجعل الله جوارحك خطوات إلى مرضاته، ويتربع سلطان محبته على قلبك حتى لا ترى إلا ما يحبه، ولا تسمع إلا ما يُرضيه، وإن العبد ليستحي حين يسمع ما بلغه حب **عنترة لعبلة** حتى قال فيها:

ولقـد ذكَرْتُكِ والرِّمـاحُ نواهـلٌ ... مِنّي وبيضُ الهِند تَقْطُر من دمي

فــوَدِدْتُ تقبيـل السيــوف لأنها ... لَمعتْ كبــارِقِ ثَـغْــرِكِ المتبسِّـم

هذا رجلٌ لا يغادِر ذكرُ محبوبته قلبه ولو كان فـي وغى الحرب وعند احتدام القتال حتى أن صورتها لتنبعث له من بين سيوف أعدائه ورماحهم! فتتراءى له من خلال بريق السيوف، وهذا حب مخلوقٍ لمخلوق، وذكر بشرٍ لبشر، فكيف هو ذكرنا لربٍّ لا تُعَدُّ نعَمُه علينا ولا تُحصى! والذي أحبنا قبل أن نحبه، وذكَرَنا قبل أن نذكره، وجعلنا أهلاً لما لم نكن له أهلاً.

لكن لحب الله علامات، وهذه العلامات ما هي إلا انتقال من حال إلى حال!

* فمن قراءة القرآن إلى تدبره والتطهر به والتأثر وجلا وبكاء عند تلاوته.
* ومن كظم الغيظ إلى العفو عن المسيء والإحسان إليه.
* ومن إخراج الزكاة إلى التلذذ بالبذل والفرح بالتضحية والتلهف للعطاء.
* ومن فيــافي الصبــر وتحمل الآلام في سبيــل الله إلى واحــات الرضا والفرح بأقدار الله.



وأخيرًا..

اعلم أنه ليس من شروط الولاية السّلامة من الذنوب، بل الانتفاض فرَقا عند الوقوع فيها، مع عدم الإصرار عليها وصدق التوبة منها، ولذا فالولي الحق يشعر -ولحياة قلبه- بما أخبر به **ابن القيم**:

«اللذة المحرمة ممزوجة بالقبح حال تناولها، مُثمِرة للألم بعد انقضائها»(١).

مسك ختام المكافآت!

وتبقى الجائزة الختامية والمكافأة الأروع، والتي تحمل بين ثناياها كرامة ما بعدها كرامة، ورفاهية لا يحيط بها عقل، وذلك بحصول كل ما يتمنون:

«ولَئِنْ سأَلني لأُعطِيَنَّهُ»،

وزوال كل ما يرهبون:

«ولئن استعاذني لأُعيذَنَّهُ»،

وهل أمنية المرء من دنياه سوى تحصيل مطلوب أو اجتناب مرهوب؟! فمن حصَّلهما فقد حيزت له الدنيا بأسرها، فلا يتمنى هذا «الولي» شيئًا إلا وأعطاه الله إياه، ولا يكره شيئًا إلا وصرفه الله عنه! فهذا المحبوب المقرَّب له عند الله منزلة خاصة، فيصير مجاب الدعوة لكرامته على ربه، والجائزتان تم تأكيدهما بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة، لكن.. هل يحتاج وعد الله إلى تأكيد أو قسم؟!

لكنه الكرم الغامر الذي أبى إلا أن يُغدِق على قلوب عباده غيث اليقين، ويبثهم الطمأنينة الغامرة في فضله، ولعل هذا ما دفع بعض الصالحين إلى أن يجزم: لو أطعتم ربكم ما عصاكم!!

(١) الفوائد ١/ ١٩٢.

يمتلكون مفاتيح الإجابة!

وفي الحديث وصف لأحد هؤلاء الأولياء:

«كم من أشعثَ أغبرَ ذي طمرين لا يُؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك»[(١)].

ويا لها من مكانة! أن يقسم عبــدٌ على ربــه! ولو فعل أحدٌ هذا لكان فيه سوء أدب مع الله، وتجاوز لحدود العبد وآداب العبودية، وأي شيء يُلزِم الرب سبحانه وهو الخالق العظيم؟!

لكنه سبحانه ألزم نفسه بإجابة هذا القسم تكريما وتشريفًا لهذا العبد، بمعنى أنه لو حلف على وقوع شيء لأوقعه الله إكرامًا له وصيانة من الحنث في يمينه، وهو غاية التدليل وأقصى درجات التكريم، فكيف اغتنم **البراء بن مالك** رضي الله عنه هذه المكافأة؟!

وما هي أقصى أحلامه وطموحاته حتى يدعو الله بها؟

أهي كنوز الدنيا وملذاتها الرائعة؟

أهي الزوجة الحسناء والحديقة الغناء؟

أهي سلطة الأمراء وسطوة الأغنياء وبطش الأشداء؟!

كلا وربي، بل لما كان يوم فتح تستر حين انكشف الناس وانهزموا، فلجأوا إليه وهو المشهور بينهم بالبشارة النبوية له بإجابة دعائه، لذا تقدموا إليه قائلين: يا بَراء! أقسم على ربك، فتقدم «الولي» مقسمًا:

أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، واستشهدني، وفي رواية: وألحقني بنبيك!

وأبرَّ الله قسمه كما وعد نبيه، فمُنحوا أكتافهم، وقتل البراء يومها شهيدًا.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والضياء عن أنس كما في تخريج مشكلة الفقر رقم: ١٢٥ والمشكاة رقم: ٦٢٣٩.

والولي الثاني:

عمرو بن الجموح ﭬ الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال: يا رسول الله ! من قُتِل اليوم دخل الجنة؟!

قال: نعم.

قال: فوالذي نفســي بيــده لا أرجع إلى أهلي حتــى أدخل الجنــة، فظنَّ **عمر بن الخطاب** ﭬ أن **ابن الجموح** يتـألّى على الله، ويقسم على الرب العظيم بمــا لا يليق من العبد الذليل، والرب لا يُلزمه شيء، بل الأمر كله إليه يصرِّفه كيف يشاء، فقال الفاروق مغضبًا:

يا **عمرو**! لا تألَّ[1] على الله، فقال رسول الله ﷺ:

«مهلا يا عمر! فإن منهم من لو أقسم على الله لأبرَّه: منهم عمرو بن الجموح، يخوض في الجنة بعرجته»[2].

وثالث أولياء الصحابة مجابوا الدعــاء هو **أنس بن النضر** ﭬ وقد كســرت أختــهُ **الرُّبَيِّع** «**عمة أنس بن مالك**» ثَنِيَّةَ[3] جارية من الجــواري، فطلب أهلها الأرْش «وهو ديــة الجراحات»، وطلب أنس وأخته العفو، فأبى القوم، فأتَوُا النَّبيَّ ﷺ، فأمرهم بالقصاص، فقال أنس ﭬ:

«أَتُكسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ يا رسول الله! لا والذي بعثك بالحق، لا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُها».

وليس هذا ردا لحكم الله ورسوله، ولكنه محاولة من **أنس** في التواصل مع أهل الجارية حتى يعفوا أو يقبلوا الدية، فقال رسول الله: **«يا أنس.. كتاب الله القصاص»**، فرضي القوم

---

(١) أي حكم عليه وحلف، كقولك والله لَيُدْخِلَنَّ اللهُ فلانا النَّار، وليُنْجِحَنَّ اللهُ سعي فُلانٍ، وهو من الأَلِيَّة: اليمين. النهاية في غريب الحديث والأثر بتصرف ١/ ٦٢.

(٢) حسن: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان رقم: ٦٩٨٥. **الفائدة الحادية عشرة**: ومن يكون في زمرة الأولياء إن لم يكن فاروق الأمة؟! وقد أقسم على الله فأبر الله قسمه. قالت **حفصة**: «سمعتُ عمر يقول: اللهم قتلاً في سبيلك، ووفاة ببلد نبيك ﷺ. قالت: وأنى يكون هذا؟! قال: يأتي به الله إذا شاء». فتح الباري ٤/ ٧١.

(٣) متوسطة الأسنان، ثنتان منها في الفك العلوي وثنتان في الفك السفلى، وهي مؤنثة وعددها أربع.

وقبلوا الأرش، فقال النَّبي ﷺ:

«إنَّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه»[1].

يقين أولياء العلماء

واسمع كيف كان أولياء الله يخصون أمتهم بدعائهم ليرفعوا عنها الكُرب والشدائد، ومنهم الشيخ الإمام القدوة شيخ الإسلام الأستاذ **أبوعثمان الحيري**، وهو للخراسانيين نظير **الجنيد** للعراقيين، واسمع القصة المذهلة!

لما قَتَل الطاغية **أحمد بن عبد الله الخُجُسْتانِيُّ** -الذي استولى على البلاد- الإمام **حيكان بن الذُّهليِّ**، أخذ في الظُّلْم والعَسَف، وبلغ من ظلمه وتجبُّره أن أمر بحَرْبَةٍ رُكِزَتْ على رأس المُرَبَّعَة[2]، وجمع أعيان البلد، وحلف عليهم: إن لم يصُبّوا الدراهم حتى يغيب رأس الحربة، فقد أحلوا دماءهم!

فكانوا يقتسمون الغرامة بينهم، فَخُصَّ تَاجِرٌ بثلاثين ألف درهم، فلم يكن يقدر إلا على ثلاثة آلاف درهم، فحمل المال إلى شيخ الإسلام **أبي عثمان الحيري**، وقال:

أيها الشيخ!

قد حلف هذا كما بَلَغَك، ووالله لا أهتدي إلا إلى هذه.

قال:

تأذن لي أن أفعل فيها ما ينفعك؟

قال: نعم.

ففَرَّقها أبو عثمان على المحتاجين!

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم كما في اللؤلؤ والمرجان في ما اتفق عليه الشيخان رقم: ١٠٩٠.

(٢) قال الأزهري: هي عصا تحمل بها الاثقال حتى توضع على ظهر الدواب.



وقال للتاجر: امكث عندي.

وما زال **أبو عثمان** يتردَّد بين السِّكَّة والمسجد ليلته حتى أصبح، وأذَّن المؤذِّن، ثم قال لخادمه: اذهب إلى السوق، وانظر ماذا تسمع.

فذهب، ورجع، فقال: لم أر شيئًا.

قال: اذهب مرة أخرى، وهو في مناجاته يقول مُقسِمًا على ربِّه في ثقة ويقين:

وحقِّك!

لا أقَمْتُ ما لم تُفرِّج عن المكروبين.

قال: فأتى خادمه يقول: وكفى الله المؤمنين القتال.

شُقَّ بَطْنُ أحمد بن عبد الله!!

فأخذ **أبو عثمان** في الإقامة[1].

ومثله إمام عصره بلا منازع، والقائم الأشهر بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، سلطان العلماء **العز بن عبد السلام**، وقد أورد خبره وكرامة استجابة دعائه صاحب طبقات الشافعية حين (ذكر واقعة الفرنج على دمياط، وقد وصلوا إلى المنصورة في المراكب، واستظهروا على المسلمين، وكان الشَّيخ مع العسكر، وقويت الريح فلما رأى الشَّيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مُشيرا بيده إلى الرّيح:

يا ريح.. خُذيهم.. عدَّة مرار، فعادت الرّيح على مراكب الفرنج فكسرتها، وكان الفتح وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من بين يدي المسلمين صارخ:

الحمد لله الَّذي أرانا في أمة مُحمَّد ﷺ رجلا سخَّر له الرّيح!)[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٥-٦٦ - ط دار الرسالة. قال شمس الدين الذهبي في تعقيبه: بِمِثْلِ هذا يعْظُمُ مشايخُ الوقت.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢١٦ بتصرف.

حب الناس

أحبَّك فأحبوك، ودنوت من رحابه فقرَّبوك، ومن غيره يملك خزائن المشاعر؟!

ومن بيده مفاتيح القلوب؟!

ومن يهبك القبول في الأرض والسماء إلا هو؟!

قال عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦].

وصدق النبي ﷺ حين شرح وأبان في حديث «القبول» الذي قال:

«إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»(١).

ويسمع **محمد بن واسع** الآية والحديث فينطلق مُبَشِّرًا:

«إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله تبارك وتعالى أقبل الله إليه بقلوب المؤمنين»(٢).

وهذا القبول أيها المحسن هو شهادةٌ لك تدخلك الجنة، وعلامة نجاتك من النار، فالطاعة تفتح لك قلوب الناس تماما كما المعصية تصنع الأقفال المحكمة حول قلوبهم نحـوك، فتحول دون القلوب وتصنـع السدود المنيعـة بين الأرواح، ولذا كتب **أبو الدرداء** رضي الله عنه إلى **مسلمة بن مخلد الأنصاري**:

«أما بعد فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله، فإذا أحبه الله حببه إلى خلقه، وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، فإذا أبغضه الله بغَّضه إلى خلقه»(٣).

وإليك البشارة الأروع في الحديث الثاني وهو حديث «الشهادة»، فعن **أبي الأسود الديلي** قال:

قدمتُ المدينة فجلست إلى **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، فمروا بجنازة فأثنوا عليها خيرًا، فقال **عمر**: وجبت، فقلت لعمر: وما وجبت؟ قال: أقول كما قال رسول الله ﷺ قال:

«ما من مسلم يشهد له ثلاثة إلا وجبت له الجنة».

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٢٨٣.
(٢) الزهد الكبير للبيهقي ١/ ٢٩٩.
(٣) صفة الصفوة ١/ ٢٤٠.

قال: قلنا: واثنان، قال: واثنان. قال: ولم نسأل رسول الله ﷺ عن الواحد[١].

وقد يبدو أن حديث «الشهادة» متعارض مع حديث «القبول»، لأنه اشترط أربعة شهداء أو ثلاثة أو اثنين، بينما حديث «القبول» اشترط كثرة من المؤمنين لا يحصرهم عدد، وليس بين الحديثين تعارض، وذلك أن القبول يكون بالسماع المتداول على الألسنة، لذا استُحِّب فيه التواتر والكثرة، أما الشهادة فلا تكون إلا بمعرفة أحوال المشهود له، فناب في ذلك أربعة شهداء أو ثلاثة أو اثنان.

إذا أطعت ربك فلك مكافأة! سيوقع الله في قلوب الخلق هيبتك ومحبتك حتى يطلق ألسنتهم بالثناء عليك، يهوِّن بذلك عليك قسوة التفرد وسيرك عكس الاتجاه، وتلك «عاجل بُشرى المؤمن»، ولذا كان **كعب** يقول:

«ما استقرَّ لعبد ثناء في الأرض حتى يستقر في السماء»[٢].

وهذا الثناء لا يكون مُصدَّقا إلا ممن خالطك وعايشك، وأصدق الناس فيه هم جيرانك، ولذا جاء القول الفصل في إحسانك أو إساءتك في الحديث الصحيح:

«إذا أثنى عليك جيرانك أنك محسن فأنت محسن، وإذا أثنى عليك جيرانك أنك مسيء فأنت مسيء»[٣].

وهي بشارة عظيمة بروعة نعيم الآخرة، ونِعْم عُقبى الدار، يلمحها كل ذي بصيرة قلبية وشفافية إيمانية، وكان من هؤلاء سيد العلماء العاملين في زمانه **سفيان الثوري** الذي أرسل هذه التحفة المبهجة إلى قلبك وقلب كل مشتاق حين جزم:

«ما كان الله لِيُنعِم على عبدٍ في الدنيا فيفضحه في الآخرة، ويحقُّ على المُنعِم أن يُتِمَّ النعمة على من أنعم عليه»[٤].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن عمر كما في صحيح الترمذي رقم: ٨٤٦.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٣٦٧.
(٣) صحيح: رواه أحمد والبيهقي وابن عساكر عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع: ٢٧٧.
(٤) عدة الصابرين ص ١٣٧.



هل عرفت الآن السِّرَّ في حديث النبي ﷺ:

«ما من رجل يُصَلِّي عليه مائة إلا غُفِر له»[١].

إنه القبول والذكر الحسن، وما هو إلا ثمرة حسناته وتقديم أمر ربه ومرضاتِه.

مرآة الإخوان فاضحة!

ولما كان المؤمن مرآة أخيه، وخير ناصح ودليل، فإذا وجدت تغيرًا من أصحابك وجفاء من الصالحين، فاستدل بذلك على اهتزاز علاقتك بربك. قال **الفضيل**:

«ما أنكرتَ من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك أورثتك ذلك»[٢].

وهو ما قرَّره النبي ﷺ حين قال:

«ما من عبد إلا وله صيت في السماء، فإن كان صيته في السماء حسنا وضع في الأرض، وإن كان صيته في السماء سيئا وُضِع في الأرض»[٣].

وصاحب الصيت السيء يعامله الناس بالهوان، وينظرون إليه بعين الاحتقار، وينفرون منه ولو كانت حركاته مضبوطة معهم بالسنتيمتر بل الملليمتر! إنه ثقيل على القلوب لا ترتاح إليه النفوس، جزاء ما اقترف مع مولاه، فأراه الله عاقبة معصيته في معاملة خلقه ورعاياه، ولــذا فاعلم أنك لن تسقط في عيــن الناس حتى تكون قد سقطت في عين الله أولاً.

حتى أن الله ليلقي بالقبول على كلام الرجل الصالح ليستقر في قلوب الناس ولو كان ظاهره الإساءة، على عكس من ساءت علاقته بربه، فهذا وإن كان حريصًا في حديثه ينتقي كلماته إلا أن القلوب تأباه وتنفر منه، ولقد رأى هذا المشهد الفقيه الرضي **إبراهيم النخعي**

(١) صحيح: رواه الطبراني عن ابن عمر كما فى ص ج ص رقم: ٥٧١٦.
(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٥٤.
(٣) صحيح: رواه البزار عن أبي هريرة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٢٧٥.

فقال:

«إن الرجل ليتكلم بالكلام على كلامه المقت، ينوي به الخير، فيُلقي الله له العذر في قلوب الناس حتى يقولوا: ما أراد بكلامه إلا الخير، وإن الرجل ليتكلم الكلام الحسن لا يريد به الخير، فيُلقي الله في قلوب الناس حتى يقولوا ما أراد بكلامه الخير»[1].

ولهذا أرسى **محمد بن حبان البُستي** قاعدة راسخة مستوحاة من مشكاة النبوة جاء فيها:

«من صلح جَوّانيُّه؛ أصلح الله بَرّانيَّه، ومن فسد جَوّانيُّه، أفسد الله بَرّانيَّه»[2].

لكنك لستَ على حال واحدة من القرب أو البعد، والحب أو البغض، بل قد تتباين حالتك الإيمانية من وقت لآخر، وبين يوم وليلة، فأنت اليوم قريب من ربك حين أصلحت ما بينك وبينه ولم يفرط منك شيء، ثم كان أن استزلك الشيطان في اليوم التالي، فهويت بمعصية واتباع هوى من مرتبة ارتقيتها بالأمس، وبهذا تفهم مقولة **الفضيل بن عياض**:

«وإني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلُقِ حماري»[3].

ماضي يصحِّح مسار المستقبل!

ويذكِّرك الأستاذ الراشد **محمد أحمد الراشد** بذكريات الذنب وآثاره المؤلمة لعل قلبك يعتبر وعقلك يتدبر فتستقبل ما تبقى من عمرك بروح جديدة:

«لو أسلف سيئة فى ليلة أخرى: من غيبة، أو بخل، أوتقاعس عن نجدة، أو تأخير صلاة، أو تنابز بالألقاب، أو منع خير،ن أو أذى جار، أو انتصار بالباطل لزوجة فى تعاملها مع زوج صاحبه، فماذا يحدث له؟

يستيقظ فإذا زوجه ذات عبوس وتأفف، ولا يدرى سببًا منه مباشرًا فى إغصابها، ثم من بعد قليل إذا بها تولول، ولربما فتش عن الفرد الضائع من حذاء ابنه نصف ساعة، حتى

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢٢٩، ٢٣٠.
(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص٢٧- دار الكتب العلمية.
(٣) حلية الأولياء ٨/ ١٠٩.



يتأخر عن دوامه المدرسى، ويكون طعامه مالحًا لا يكاد يسيغه، وتعذبه سيارته نصف ساعة أخرى كى تشتغل، وتكون كالدابة الشموس، ويجد الإشارات الضوئية حمراء في وجهه، ويبتلى بسائق طائش عن يمينه، ثم يوقفه شرطي مرور كان قد تشاجر مع زوجه هو الآخر فيفرغ همومه فيه وكيحرر له مخالفة هو منها برئ، وقد يبتلى ثالثة فى مكتبه بمراجع فوضوى ملحاح يعكر عليه ويشكوه لدى الرئيس، ولربما يجد فى الآخر طعام غدائه دخانًا محضًا وتكون زوجه قد نسيت القدر على النار حتى احترق، ويظل سائر يومه قلقًا كئيبًا، حتى أن أقل عقوبته أن توقظه رنة الهاتف وهو فى عز نوم القيلولة، فيزعجه»[١].

فإذا عدت لربك تائبًا، وكفَّرت عن خطيئتك مستغفرًا، فعندها يحدث الانقلاب، ويكفي لحدوث هذا الانقلاب قرار جازم من قلب حازم!!

وليس أعجب في هذا الميدان من قصة الزاهد **حبيب العجمي** كمثال على تغير مظهر العبد بحسب جوهره، وقربه أو بعده عن ربه.

كان الزاهد **حبيب** من الغافلين، ولا يتورع عن الربا، فمر ذات يوم بصبيان يلعبون، فقال بعضهم: قد جاء آكل الربا! فنكس رأسه، وقال: يا رب أفشيت سري إلى الصبيان، فرجع ووضع ماله بين يديه، وجعل يقول: يا رب إني أشتري نفسي منك بهذا المال فأعتقني، فلما أصبح تصدق بالمال كله، وأخذ في العبادة فلم ير إلا صائمًا، أو قائمًا، أو ذاكرًا، أو مصليًا، فمرَّ ذات يوم بأولئك الصبيان الذين كانوا عيَّروه بأكل الربا، فلما نظروا إليه، قال بعضهم: اسكتوا، فقد جاء حبيب العابد، فبكى[٢].

---

(١) صناعة الحياة ص ٥٩.
(٢) تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٥/ ٣٩٠ - ط مؤسسة الرسالة.

رحلة السَّعادة

السعادة في هذه الحياة ليست هدفًا بل رحلة، فلو كانت هدفًا لظلَّ العبد يعاني الشقاء والحرمان حتى يدركها، لكن السعادة الحقيقية هي الرحلة التي في كل خطوة من خطواتها يرتشف قلبك مذاقها الرائع، وهذا الكنز لا يكون إلا للمؤمن، وهذه الديمومة لا توجد إلا في رحاب الإيمان والقرب من الرحمن.



لقد مثَّلت السعادة على مر العصور الكنز المنشود، والأمل الذي داعب خيال كل من دبَّ على هذه الأرض، وقد قضى الله قضاء لا يرد أن يجمع على العبد سعادتين أو عذابين، فمن سعِد بجنة القرب منه وتلذذ بطاعته في الدنيا سعد بجنة الآخرة، ومن عُذِّب بنار البعد عنه في هذه الدار عُذِّب ولابد غدا في النار!

فسعادة الدنيا بوابة إلى سعادة الآخرة الأروع، ولا مقارنة! لذا يخلق الله لسعادة الآخرة خلقا آخر، وقلوبا جديدة تطيق هذه الفرحة الغامرة، فلو ظلت قلوبهم الدنيوية معهم في الجنة لماتوا من شدة الفرحة(١).

طريقك إذن إلى هذه السعادة الأخروية الرائعة لابد أن يمر عبر سعادة دنيوية لا يجنيها العبد إلا في ظلال الطاعة.

ولأن لكل شيء حقيقة، فحقائق السعادة خمسة:

الحقيقة الأولى: السعادة لا تنبع إلا من داخلك:

أي من القلب.. ولا تسكن غير القلب.. ولا سبيل إلى الوصول إليها من خارج القلب، واسمع عصارة قراءات وتجارب ومخالطات ومشاهدات الإمام **حسن البنا**، وأعيد عليك قولي: «قراءات وتجارب ومخالطات ومشاهدات» لهذا الرجل المجدِّد، وهي قوله:

«طالعت كثيرًا وجربت كثيرًا وخالطت أوساطًا كثيرة وشهدت حوادث عدة، فخرجت من هذه السياحة القصيرة المدى الطويلة المراحل بعقيدة ثابتة لا تتزلزل، هي أن:

السعادة التي ينشدها الناس جميعًا إنما تفيض عليهم من نفوسهم وقلوبهم، ولا تأتيهم من خارج هذه القلوب أبدا، وأن الشقاء الذي يحيط بهم ويهربون منه إنما يصيبهم بهذه النفوس والقلوب كذلك».

ليست السعادة إذن في المال.. أو السلطة.. أو الجاه..

---

(١) في الحديث: «**فلولا أن الله قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحا**». رواه الترمذي عن أبي سعيد وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم: ٧٩٩٨.

لذا ترى البسمات تغزو وجوه كثير من المساكين والفقراء، بينما تسمع الزفرات والأنات تتصاعد من صدور بعض الأغنياء، فكم من طيِّب عيش لا يملك درهمين! وذي قناطيرَ مقنطرة مُنَغَّص!

ويُسأل عن ذلك القلب وحده!

والقلب كائن عجيب.. قضى الله أن لا سلطان لأحد عليه إلا الله، فقال سبحانه:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾[1].

وقد جاءت الحقيقة القرآنية السابقة بعد الأمر بالاستجابة لله وللرسول، وكأن هذه الاستجابة هي مفتاح السعادة، وأن الإعراض عنها يفتح باب تقلب القلب على مصراعيه، فيُحال بينه وبين سعادته، ففي الآية ترغيب لمن استجاب لأمر الله، وترهيبٌ كذلك لمن أدبر عنه وأعرض، والأمر إليكم فانظروا ماذا تبتغون!!

من الذي يملك إذن مفاتيح القلوب ليسكب فيها السعادة الغامرة.. وانشراح الصدر.. وراحة البال..

أإله مع الله؟

واسمعوا قدرة مقلِّب القلوب..

وباعثها من الشقاوة إلى السعادة..

ومنتشلها من أودية الكراهية إلى أعلى قمم المحبة.. في لحظة واحدة وبلمح البصر..

هذا **فضالة بن عمير**.. المشرك الذي امتلأ قلبه حقدًا وبغضًا للنبي ﷺ حتى عزم على قتله عام الفتح، فلما دنا منه وهو يطوف بالبيت وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فسكن

---

(١) **الفائدة الثانية عشرة**: وحيلولة الله بينك وبين قلبك بأن يحرمه من مراقبته ومعرفته، والتي هي مفتاح سعادته وسر نجاته، فهو سبحانه يحول بين العبد وبين الكفر إن أراد سعادته، وبينه وبين الإيمان إن قدَّر تعاسته، وكما يحول بين الإنسان وبين نطقه ليفقد القدرة على الكلام، وبين اليد وبطشها والرِّجل ومشيها ليُصاب العبد بالشلل، فكذلك حيلولته بين المرء وبين هدى قلبه وفلاحه، وهو الأخطر على الإطلاق، وأي قرار لمن هذه حاله؟ ومن أحق بالخوف منه؟



قلبه، أو إن شت قلت ثار على ماضيه وانقلب، فكان **فضالة** بعدها يحدِّث عن هذا اللحظة الفارقة قائلاً:

«والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه»!!

وهذا **ثمامة بن أثال** ما إن نطق بالشهادتين حتى انطلق لسانه مفصحًا عن الثورة التي اجتاحت كيانه كله بإسلامه، ثورة أخبر النبي ﷺ بتفاصيلها حين قال:

«يا محمد! والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي».

لكن هذه الثورة القلبية العارمة التي رعاها الله ليست حكرًا على الرجال، بل إن من النساء من قاد وتبنى انقلابات إيمانية خارقة! فهذه **هند بنت عتبة** وقد جاءت إلى النبي ﷺ فقالت:

يا رسول الله.. والله ما كان على ظهر الأرض أهــل خباء أحب إليَّ من أن يُذِلَّهم الله من أهل خبائك، وما على ظهر الأرض أهــل خباء أحب إليَّ من أن يعزهم الله من أهل خبائك.

فما سر هذه «الثورة»؟!

وكيف تمت في لمح البصر!

أغير الله؟!

من الذي نزع عن هذه القلوب كسوة الشقاوة والبغضاء ليُلبسها بدلاً منها أثواب المحبة والهناء؟

أإله مع الله!

رسالة إلى فريقين

وهي رسالة قوية إلى:

المتقلب بين ألوان الطاعات.. ممن غمر فيض الإيمان قلبه.. تقول له:

لن يقدر أحد على سلب سعادتك وتنغيص حياتك..

لن تقوى قوى الأرض مجتمعة أن تقلب بسمتك إلى عبوس.

فالإيمان أحياك وأسعد قلبك وقوّاك، وبها صدح **القرضاوي**:

الله أسعدني بِظلِّ عقيدة... أفيستطيع الخلق أن يشقوني؟!

وهي رسالة كذلك إلى:

المتقلب بين ألوان الخطايا..

يا غارقًا حتى أذنيه في مستنقع الأهواء والرزايا..

أخي المُعرِض عن الله حينا من الدهر..

المحروم في موسم العطايا وقد انهمرت على قلوب المقبلين..

هي رسالة فحواها:

مفتاح هدايتك بين يديك..

ولحظة انقلابك مكنوزة في قلبك الذي بين جنبيك..

لكن عودته للحياة مرهونة بصدق التجائك وطول بكائك، ومن انتشل هؤلاء من براثن الكفر قادرٌ على أن يخرج أمثالك من الموحِّدين من أودية الإعراض وجنبات الغفلة..

ها قد أُلقيَ المفتاح إليك على رمية حجر..

يهتف بك أن تتناوله..



لتفتح أقفال قلبك المحكمة..

وتنسف أبوابه المؤصدة..

ليدخل النور..

ويطرد الظلام..

وهذه السعادة هي مكافأة الله لمن أطاعه، وآثره رضاه على نفسه حتى أن أحد إخوانك في السعادة ليقول مخبرًا عن فرحته الغامرة وجنته القلبية الرائعة:

نحن في لذة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف!

الحقيقة الثانية: السعادة الدنيوية ملولة:

هذه طبيعتها، فالدنيا ملولة وسعادتها مهجورة، وما أروع وصف جُبران خليل جبران يشرح هذا المعنى:

وما السعادةُ في الدنيا سِوى شبحٍ ... يُرجى فإن صار جسما ملّه البشرُ

كَالنّهرِ يَركُضُ نَحوَ السّهل مُكتَدِحًا ... حتّى إِذا جاءَهُ يبطي وَيَعتَكِرُ

لم يَسعَدِ الناسُ إلا في تشوقِهم ... إلى المنيع فإن صاروا به فَتروا

وراقب نفسك..

تُفني حياتك ركضا وراء متعة ظنية أو لذة مرتقبة، حتى إذا ظفرت بها، لم تقضِ سوى بضعة أيام ليصيبك الملل ويغزو قلبك السأم، فتبدأ رحلة البحث عن مصدر سعادة آخر، حتى إذا ظفرت به مللت منه، وسعيت وراء هدف آخر، وهكذا حتى تنقضي أعوام عمرك ركضا خلف سراب حسبته ماء حتى إذا نلته وأحطت به لم تجده شيئا، وشعرت بفراغ لا يوصف وملل لا ينتهي، وتأمل كافة لذائذك الدنيوية، وراجع ذكرياتك، واسترجع محاولاتك للارتشاف من نبع السعادة وبحر المتعة، وستجد برهان هذه الحقيقة.

ولقد صدقك **ابن الجوزي** غاية الصدق حين أبرز هذه الحقيقة القائمة على التجربة:

«المملوك مملول، ومتى قدر الإنسان على ما يشتهيه ملَّه ومال إلى غيره: تارة لبيان عيوبه، التي تكشفها المخالطة؛ وتارة لمكان القدرة عليه، والنفس لا تزال تتطلع إلى ما لا تقدر عليه»[(١)].

ولذا خذها قاعدة:

كل هدف دنيوي محدود سيعتريك الملل بعد تحصيله!!

أخي الباحث عن السعادة..

اللذائذ الدنيوية -وإن كانت حلالاً- لا يمكن أن تمدك إلا بسعادة متناقصة.. تتلاشى بمرور الزمن، فكيف إذا كانت حرامًا؟!

إنها في تلك الحالة لا تورث لذة بل احتقارَ الذات وتنغيص العيش وضيق الصدر...

وبنظرة أكثر شمولاً وببصيرة ثاقبة نظر **أبو حامد الغزالي** إلى سر السعادة بعقلية الباحث الذي أحكمتـه التجارب وصقلته الدراسات، ونفسية المؤمن الذي صاغته الخلوات والركعات، ثم خرج فقال:

«وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه»[(٢)].

الحقيقة الثالثة: سعادة معكوسة:

وتارة تكون النعمة نقمة، والنجاة حبل هلاكك، والسعة معبر الضيق، فتقضي الشهور تسعى للحصول على ما تظن أن فيه سعادتك والتعاسة كل التعاسة فيه، وصدق الشاعر إذ يقول:

كلٌ يحـاول حيلـةً يرجـو بهـا	دفعَ المضـرة واجتـلاب المنفعة
والمـرء يغلط فـي تصرٌّف حالـه	فلربما اختار العناء على الدعة

---

(١) صيد الخاطر ص ٢٣٧ بتصرف.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٨٥.



يظن سعادته في زوجة يلهث وراءها ويظن بحر السعادة الوافر ينتظره خلف باب البيت الجديد، فإذا به يتزوج ليجد ما ظنه سعادة منتظرة تعاسة مرتقبة، وينقلب ما ظنه حبا إلى عداوة وبغض.

يظن سعادته في وظيفة جديدة براتب مغري، وإذا به يفاجأ بمدير متعنت أو ظروف عمل قاسية تجعل الأرق لا يفارقه، والقلق يسكن قلبه.

ولأن الله تعالى قال:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فقد شُرِعَت الاستخارة، بل حرص النبي ﷺ على أن يلقِّنها أصحابه وكأنها سورة من القرآن لأهميتها كما في رواية **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما:

«كان رسول الله ﷺ يُعلِّمُنا الاستخارة في الأمور كلها كما يُعلِّمنا السورة من القرآن»[١].

فسنَّ النبي ﷺ للرجل أن يصلي ركعتين من غير الفريضة، ثم يدعو:

«اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر وتسميه باسمه خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله، فاقدره لي ويسِّره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به».

وقد قالوا في الحكمة من تقديم الصلاة على دعاء الاستخارة: أنَّ الدعاء أرجى ما يكون من الإجابة عقب عمل صالح، ولا عمل صالح أنجع ولا أنجح من الصلاة بما فيها من تعظيم لله والثناء عليه والافتقار إليه.

(١) تخريج الكلم الطيب رقم: ١١٦

وكان العرب يعتمدون التطير طريقًا لإمضاء الأمر أو إيقافه، فجاء الإسلام ليجعل الاستخارة بديلاً ناجعًا.

قال **ابن القيم** رحمه الله:

«وعوَّضهم بهذا الدعاء الذي هو توحيد وافتقارٌ وعبوديةٌ وتوكلٌّ، وسؤال لمن بيده الخيرُ كلُّه، الذي لا يأتي بالحسنات إلاَّ هو، ولا يصرف السيِّئات إلاَّ هو، الذي إذا فتح لعبده رحمة لَم يستطع أحدٌ حبسَها عنه، وإذا أمسكها لَم يستطع أحد إرسالَها إليه من التطير والتنجيم واختيار الطالع ونحوه، فهذا الدعاءُ هو الطالع الميمون السعيد، طالعُ أهل السعادة والتوفيق، الذين سبقت لهم من الله الحسنى، لا طالع أهل الشرك والشقاء والخذلان الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون»[1].

وبالاستخارة تحدَّدت كيفية دفن رسول الله ﷺ، فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه أنه قال:

«لما توفي رسول الله ﷺ كان بالمدينة رجل يَلْحَد وآخر يَضْرَح، فقالوا: نستخير ربنا، ونبعث إليهما فأيهما سبق تركناه، فأرسل إليهما، فسبق صاحب اللّحد، فلحدوا للنبي ﷺ»[2].

وهل من العقل أن يربط الإنسان فرحته بمجهول، وهل يعلم الغيب إلا الله، ولذا فتسليم الأمر لله وتفويض الاختيار له هو ديدن السعداء، ولذا لما سئل **الفضيل بن عياض**: من الرَّاضِي عن الله؟ قال:

«الَّذي لا يحب أن يكون على غير منزلته التي جُعَل فيها»[3].

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٤٤٣ ٤٤٥.

(٢) حسن: رواه ابن ماجة وأحمد عن أنس بن مالك كما في أحكام الجنائز رقم: ٩٤، واللحد: الشَّق الذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت؛ لأنه أميل عن وسط القبر إلى جانبه، ومنه الإلحاد وهو الميل، والضريح هوالشَّق يكون في وسط القبر.

(٣) الرضا عن الله ص ٥٨ رقم: ٢٣ – ابن أبي الدنيا – ط الدار السلفية.

بين استخارتين!

عُرِض على والدي رحمه الله وظيفة في شركة مرموقة بثلاث أضعاف راتبه، وحثه كل من حوله على قبولها على الفور، لكنه آثر أن يصلي ركعتي الاستخارة أولاً، ورأى ليلتها رؤيا، وفيها أنه دُعي إلى حفل استقبال في الشركة الجديدة، فوجد مائدة كبيرة عليها أصناف متنوعة من «الكبدة» مطهية بطرق مختلفة ومظهرها شهي لذيذ، وليس غير ذلك، فمدَّ يده ليتناول قطعة منها، فوجدها شديدة المرارة، فلفظها وانصرف، ولما استيقظ كان قد اتخذ قراره برفض الوظيفة، فقد أوَّل هذه الرؤيا بأن الشركة الجديدة بها رزق كثير لكنه خبيث! وقد قوبل اعتذاره هذا ممن يعرفونه باللوم الشديد، لكنه لم يأبه لذلك استئناسًا بهذه الرؤيا واستنادًا إلى اختيار ربه.

ومرَّت الأيام، وتأتيه دعوة لزيارة دولة الكويت بحثًا عن وظيفة هناك، وذلك من رفيق دربه في ساحة الدعوة المستشار **محمد كمال إبراهيم**، وصلى ركعتي الاستخارة مرة ثانية، ورأى الرؤيا الثانية:

أنه رأى رجلاً يوقظه لصلاة الفجر، ويقدِّم له كوبًا من اللبن المختلط بالعسل، ويقول له: اشرب والحق بي إلى المسجد لصلاة الفجر!

وقد انشرح صدر والدي غاية الانشراح لهذه الرؤيا، فالعسل واللبن رمزا الخير الوفير، ولذا قبِل دعوة الزيارة، وسافر إلى دولة الكويت، وظلَّ هناك يبحث عن فرصة عمل لمدة تسعة أشهر! ومع ذلك لم ييأس مستأنسًا باستخارته راضيًا باختيار الله له، وقد أجرى الله له الخير الوفير في وظيفة مستقرة ربح فيها دنياه وحفظ فيها دينه، ففتح الله به القلوب في هذه البلاد، وأخلف عليه خير الجزاء.

الحقيقة الرابعة: نعيمها إلى زوال:

دخلت امرأة على **هارون الرشيد**، وعنده جماعة من أصحابه، فقالت:

يا أمير المؤمنين! أقرَّ الله عينك، وأتمَّ سعدك، ففهم ما تقول، ولم يُسعده دعاؤها كما أسعد جلساءه، ثم قال:

ما أظنكم فهمتم..

أما قولها: أقرَّ الله عينك أي أسكنها، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت!

وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمَّ أمر بدا نقصه ترقَّب زوالا إذا قيل تمَّ

ولأن سكون الحياة محال، وعجلة الكون لا تزال سائرة، فليس بعد التمام غير النقصان، فبعد الصفو الكدر، وعقب الصحو المطر، ووراء الضحكات الدمعات، وقد تلقف الشعراء هذا المعنى حتى صاغه أميرهم في شطر بيت من قصيدته «النيل» حيث قال **شوقي**:

والحظُّ إن بلغ النهاية موبِقُ.

ومن قبله قال **أبو العتاهية**:

أسرعَ في نقصِ امرئٍ تمامُه يا ذا الذي قد بعُدَتْ أيامـهُ

وقالها في ألفاظ أخر يصف بها حال من فهم الدنيا وتصاريفها:

تزيـدُه الأيام إن أقبلَت شدةَ خوفٍ لتصاريفها

كأنها في حال إسعافها تُسمِعُـه وقْـعَ تخويفِها

وقد قالها أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه:

«ما قال الناس لقوم طُوبى لكم إلَّا وقد خبأَّ لهم الدهر يوم بؤس»[(١)].

إن الليالي لم تُحسن إلى أحد إلا أساءت إليـه بعد إحسان

ولنا في حديث رسول الله ﷺ القول الفصل والسُّنة التي لا تتخلف، واسمع حديث

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٣٦.

أنس رضي الله عنه:

كانت ناقة لرسول الله ﷺ تُسمى العضباء، وكانت لا تُسبق، فجاء أعرابي على قعود له، فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين، وقالوا: سُبِقت العضباء!

فقال رسول الله ﷺ:

«إن حقًا على الله تعالى أن لا يرفع شيئًا من أمر الدنيا إلا وضعه»[١].

فكل من فرح بشيء من دنياه واستنام له فهو واهم، ومن ربط سعادته بهذا فقد ربط نفسه دون أن يدري بصنم من جليد، يوشك أن يذوب فور أن تشرق عليه الشمس، وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لزوال الدنيا يتكرر كل يوم أمام ناظريك، ليذكِّرك كلما نسيت، فقال رسول الله ﷺ:

«إن مطعم ابن آدم ضُرِبَ للدنيا مثلاً بما خرج من ابن آدم، وإن قزَّحه وملَّحه، فانظر ما يصير إليه»[٢].

ومعنى قزَّحه أي أضاف إليه من التوابل ما يطيِّب طعمه، والمعنى أن مثل الدنيا كمثل الطعام؛ مهما كان شهيا رائعًا فإنه زائل وصائر إلى ما يُكره، فالدنيا لابد أن ترجع إلى إدبار..

وهو الذي تأمله جيدًا شيخ الإسلام **ابن تيمية** ثم قال:

«ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال»[٣].

وهو ما يورث العبد عدم اغترار أو بطر بأي من أقدار الله المفرحة ونعمه المبهجة، ومن أيقن أن ما عنده من نعم مفقود لا محالة لم يجزع لفقده، وكل لذائذ الدنيا هي إلى زوال، وهو تساؤل مشروع يتوجه به الشاعر المؤمن إلى كل متحسِّر على فوات لذة أو متعة، حيث

---

(١) صحيح: رواه البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٢٠٥٧.
(٢) حسن: رواه ابن المبارك والبيهقي عن أبي بن كعب كما في صحيح الجامع رقم: ١٧٧٨.
(٣) مجموع الفتاوى ١/ ٢٤.

قال:

نفسي التي تملك الأشياء ذاهبةٌ فكيف آسى على شيء لها ذهبا!

ولهذا كان **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه ينشد:

نُسَرُّ بما يفنى ونفرحُ بالمُنى كما سُرَّ باللذاتِ في النوم حالمُ

فمن منكم حالم وأيكم تيقَّظ؟!

وأنا أجيبكم:

المتيقِّظ هو من أراد سعادة الدارين، وانشراح الصدر بالفوزين، وهذا ليس له باب سوى باب الإله، والتماس السعادة منه[1].

الحقيقة الخمسة: السعادة الكبرى:

وسعادة الدنيا معبرٌ إلى سعادة الآخرة..

بل خُذها قاعدة:

من لم يفرح في دنياه لن يفرح في آخرته، وكل شقي القلب في الدنيا يلحق به شقاؤه في الآخرة.

ولذا قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**:

«إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»[2].

فالسعادة الكبرى أن يستشعر المحسن حلاوة الطاعة ولذة البذل؛ لأن الله اصطفاه من بين عباده لطاعته واختصه لعبادته، فيُحِسُّ بطعم لا تُعَبِّرُ عنه الكلمات ولا تَصِفه العبارات،

---

(١) **الفائدة الثالثة عشرة**: قال **أبو حامد الغزالي**: «النعمة الحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وأما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة نعمة، فإن ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا، ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق، فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها، فإنَّ تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضى إلى النعمة الحقيقية». الإحياء ٤/ ٩٩.

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٤٨ – ط دار الحديث.



وهي سعادة تتجاوز دنياه إلى آخرته، والحياة إلى نعيم ما بعد الممات، وقد أعلن عن هذا العرض السخي شيخ الإسلام **ابن تيمية** حين قال لك:

«من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية»[١].

لكن للسعادة كيمياء خاصة عرض لها **أبو حامد الغزالي** حين ربطها بسر رائع من أسرارها، وهو سر المعرفة**!** فقال:

«وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر، ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو عرف الملك لكان أعظم فرحا وليس موجودا أشرف من الله سبحانه وتعالى؛ لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنعته؛ فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته»[٢].

ولذلك يقول الإمام **ابن القيم**:

«فإن أوصاف المدعوّ إليه ونعوت كماله وحقائق أسمائه هي الجاذبة للقلوب إلى محبته وطلب الوصول إليه، لأن القلوب إنما تحب مَن تعرفه وتخافه وترجوه وتشتاق إليه وتلتذّ بقربه وتطمئن إلى ذكره بحسب معرفتها بصفاته»[٣].

ولذا تعجَّب **ابن القيم** في فوائده حتى جعلها أعجب الأشياء، فقال:

«من أعجب الأشياء أن تعرفه ثمَّ لا تحبه»[٤].

فانعدام المحبة أو نقصانها هو نتاج انعدام المعرفة أو نقصانها، ومن أحبَّ ربَّه أحبَّ كل ما جاء منه، ولو كان ظاهره ما تكره النفوس، لأن الحبيب مُحال أن يسوء حبيبه، ولهذا قال عابد البصرة الملقَّب براهب الأمة **عامر بن عبد قيس**:

«لقد أحببْتُ الله حُبا سَهَّل عليَّ كُلَّ مُصيبة، وأرضاني بكُلِّ قضيَّة، فما أُبالي مع حُبِّي إيَّاه

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٢٩ – ط دار الكتاب العربي.
(٢) كيمياء السعادة ١/ ١٤٠.
(٣) مدارج السالكين ٣/ ٣٥١.
(٤) الفوائد ص ٤٧.

ما أصبحْتُ عليه وما أمْسَيتُ»[١].

ومن هنا تدرك أن أسباب التعاسة الحقيقية في عدم معرفة الله، وجهل الحكمة من أفعاله في البلاد والعباد، وقلة الخبرة بسننه في الكون، وأنه على قدر معرفتك بربك تكون سعادتك، بل وسعادتك بأفعاله وأقداره حتى تصبح أقدار الله هي عنوان سرورك؛ بينما هي في نفس الوقت سر تعاسة غيرك!

وقد أعلنها **عمر بن عبد العزيز**:

«أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القدر»[٢].

ولذا كان هو الرجل بحق، ذلك أن الرجولة لها مفهوم آخر عند أبناء الآخرة، تتجاوز المظهر إلى الجوهر، والصور إلى المخبر، ولذا وجدنا شيخ الإسلام **أبو عثمان الحيري** يضيف لقاموس الرجولة تعريفًا جديدًا فيقول:

«لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في المنع والعطاء، وفي العِزِّ والذُّل»[٣].

وكل من لم ير الآمر في الأمر، فستجده يتفنن بالحيل ليتفلت من ذلك الأمر، وأما من عرف الآمر فلن يتوانى عن طاعته، وعلى هذا فمن لم يجد السعادة مع العبادة، ولم يحس بهذا الشعور عند الإقبال على الطاعة، فليراجع «حُسن عبادته»، لأنَّ الله أكرم من أن لا يقابل إقبالنا بإقبال، ومشينا نحوه بركض!

قال **ابن تيمية**:

«إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا، فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور؛ يعني أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح وقرة عين،

---

(١) كتاب الأولياء لابن أبي الدنيا ص ٣٠- ط مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٢١٢. **الفائدة الرابعة عشرة**: واسمع كلاما كاللجين على لسان **الحسين**: لما وقع الطَّاعون بأرض العراق؛ فزِع النَّاسُ إلى الإمام **الحسين** رضي الله عنه؛ فقال لهم: «ما أحْسَن ما صنَع بكم ربُّكم؛ أقْلَع المُذْنِب وأنفق المُمْسِك». العقد الفريد لابن عبد ربِّه ٣/ ١٤٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٢.

فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول»[1].

سعادة العميان!

ومن مفاتيح السعادة كنز قلبي مغمور يجعل القلب كالبيت المعمور واسمه الرضا، وقد رضي بقضاء الله واحدٌ ممن فقد بصره، قال **عز الدين أحمد بن عبد الدائم**:

إن يُذهبِ اللّه من عينيَّ نورَهما ... فإنَّ قلبي بصيرٌ ما به ضررُ
أرى بقلبي دنياي وآخرتي ... والقلبُ يُدرك ما لا يُدرك البصرُ

والشاعر الضريرُ **نصر علي سعيد** يرى أنه خير من كثير من المبصرين الذين يسيرون في درب الحياة بغير هدى ولا هدف، بينما كثير من عمي الأبصار بصائرهم متوهجة وعزائمهم شامخة، فهم المبصرون حقًا في زمن العميان:

كم من ضريرٍ مبصرٍ متوهّجٍ ... يعطي ويعطي والمدى وهّابُ
وترى ألوف المبصرين بلا هدى ... لكأنما فوق العيون حجابُ

وهذا ما فهمه قتادة لما سئل:

ما بال العميان أذكى وأكيس من البصراء؟ فقال:

«لأن أبصارهم تحوَّلت إلى قلوبهم»[2].

وقد لمح الأديب **الجاحظ** في العميان ذكاء عوَّضهم به الله عن فقد أبصارهم، فقال:

«العميان أذكى وأحفظ، وأذهانهم أقوى وأصفى، لأنهم غير مشتغلي الأفكار بتمييز الأشخاص، ومع النظر تشعب الفكر، ومع إطباق العين اجتماع اللب»[3].

وقد وُلد **بشار بن بُرْد** أعمى بل كان أعمى منذ كان جنينًا كما يقول، وعلَّل هذا بالذكاء،

(١) مدارج السالكين ٢/ ٦٨- ط دار الكتاب العربي بيروت.
(٢) اللطائف والظرائف ص ١١٠.
(٣) السابق ص ١١٠.

وأن ضياءَ العين عندما غاض أتى رافدًا للقلب يميِّزه عن غيره من المبصرين، واسمع إليه يقول:

عَميتُ جنينًا والذَّكاءُ من العمى ... فجِئتُ عجيبَ الظَنِّ، للعلم موئلا

وغاض ضياءُ العَينِ للعلم رافدا ... لقلبٍ إذا ما ضيَّع النَّاسُ حَصَّلا

هذا غير العطايا الإيمانية والمنح الأخروية، واسمع كيف عرف أصحاب البصائر ممن فقد بصره.. قدر ما اختصهم الله به من عطية وإن كانت في الظاهر بلية! فقد روى **الجنيد البغدادي** ما رآه من أحد العميان فقال:

«حضرتُ **أبا عبد الله الأشناندانى** وكان ضريرًا، فقرأ القارئ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، فقال: سقط عني نصف العمل»[1].

ولهذا لم يُبالِ بشار بن برد بمن عيَّره بعماه، بل رأى في ذهاب بصره نعما ثلاثة فقال:

وعيَّرني الأعداء والعيب فيهمو ... فليس بعارٍ أن يقال ضرير

إذا أبصر المرء المروءة والتقى ... فإن عمى العينين ليس يضير

رأيت العمى أجرا وذخرًا وعصمة ... وإني إلى تلك الثلاث فقير

لكن.. هل يحس بهذا الشعور إلا من امتلأ قلبه إيمانا وغُمِر يقينا؟

والمؤمن الحق قد امتلك هذه البصيرة واستنار بنور الله؟ واستقوى بما أمدَّه به الله؟! حتى نسب **مصطفى صادق الرافعي** هذه الحال إلى هذه القوة النفسية العالية فقال:

«وسر السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التي تجعل الأحسن أحسن مما يكون، وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو»[2].

وشتان بين هؤلاء السعداء، وآخرين من أقرانهم؛ حالتُهُم تُدمع العينين، وتُحزن القلب، كهذا الأعمى الذي رأى منزله قبرًا، يستوي عليه فيه الليل والنهار، فانطلق يشكو

(١) دُرَرُ الحِكَم لأبي منصور الثعالبي ص ٤٩- ط دار الصحابة - طنطا.
(٢) وحي القلم ١/ ٥٢- ط دار الكتب العلمية.

في ضجر:

فها أنا كالمقبور في كسر منزلي — سواءٌ صباحي عنده ومسائي

يرق ويبكي حاسدي ليَ رحمةً — وبُعدًا لها من رقةٍ وبكاء[1]

وهذا ما أدهش كثيرًا من كتاب الغرب ومفكريه، وإليك هذه المقالة التي تحمل العنوان التالي:

عشت في جنة الله!

والتي كتبها الكاتب الغربي المشهور «ر. ن. س. بودلي»، والذي أورد مقالته «ديل كارنيجي» في كتابه «دع القلق وابدأ الحياة» حيث يقول **بودلي**:

«في عام ١٩١٨م وليت ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية؛ حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغنامًا، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى أنني ألفت كتابًا عن محمد عنوانه «الرسول».

وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي، وأحفلها بالسلام، والاطمئنان، والرضا بالحياة.

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق؛ فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذًا سهلاً

---

(١) **الفائدة الخامسة عشرة**: قال **ابن القيم** في كلام نفيس يُكتَب بماء الذهب، ويبُثُّ الروح في نفوس الساخطين، ويبعث الأمل في قلوب الشاكين: «فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيرا له، ساءه ذلك القضاء أو سرَّه، فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كانت في صورة محنة، وبلاؤه عافية، وإن كان في صورة بلية، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعُدُّ العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل، وكان ملائما لطبعه، ولو رُزِقَ من المعرفة حظا وافرا لعدَّ المنع نعمة، والبلاء رحمة، وتلذَّذ بالبلاء أكثر من لذَّته بالعافية، وتلذَّذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى، وكان في حال القلة أعظم شكرا من حال الكثرة». مدارج السالكين ٢/ ٢٠٧.

هينًا، فهم لا يتعجلون أمرًا، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقًا على أمر.

إنهم يؤمنون بما قدر يكون، وأن الفرد منهم لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

وليس معنى هذا أنهم يتواكلون، أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي كلاً.

ثم أردف قائلاً:

ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه: هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي «الرون» في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، حتى أحسست كأن شعر رأسي يتزعزع من منابته؛ لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون.

ولكن العرب لم يشكوا إطلاقًا، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة: «قضاء مكتوب.

لكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى.

قال رئيس القبيلة الشيخ: لم نفقد الشيء الكبير؛ فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء، ولكن حمدًا له وشكرًا؛ فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ من جديد.

ثم قال **بودلي**:

وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يومًا، فانفجر أحد الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي، وتولاني الغضب، وانتابني القلق والهم، وسألت صحبي من الأعراب: ماذا عسى أن نفعل؟

فذكروني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق.



ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاثة إطارات ليس إلا، ولكنها ما لبثت أن كفت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفذ.

وهنالك أيضًا لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوؤهم، بل مضوا يذرعون الطريق سيرًا على الأقدام».

وبعد أن استعرض «**بودلي**» تجربته مع عرب الصحراء علق قائلاً: «أقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحل أن الملتاثين ومرضى النفوس، والسكرين الذين تحفل بهم أمريكا وأوربا ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساسا لها، إنني لم أعان شيئا من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا».

وأخيرًا ختم كلامه بقوله:

وخلاصة القول أنني بعد انقضاء سبعة عشرة عامًا على مغادرتي الصحراء ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة.

ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير الطبية»[١].

---

(١) دع القلق وابدأ الحياة ص ٢٩٠ – ٢٩٢

الغنى الحقيقي

في الحديث الصحيح:

«إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم!! تفرَّغْ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسُدَّ فقرك، وإن لا تفعل ملأتُ يديك شُغلاً ولم أسُدَّ فقرك»[1].

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٣٥٩.



وهذا الغنى ليس بهدية مجانية أو منحة دون مقابل، بل هو هبة إلهية ومكافأة ربانية لكل من دفع ثمن: «تفرَّغ لعبادتي»، وهي مكافأة لا يستحقها إلا من قدَّم وبذل، وكلمة «تفرَّغ» تشير إلى أن قلب العبد تتنازعه قوى كثيرة، ومن آثر الله على غيره من المحاب آثره الله على غيره من الخلق، واختصه بهذا اللون من «الغنى» ليكون جنة من جنان المؤمن ينعم بها في دنياه قبل أن يستكملها في أخراه، والغنى الذي يعنيه الحديث له ثلاثة معان:

الأول: القناعة:

إن التفرغ لعبادة الله بمعناها الواسع الشامل يملأ الصدر غنى ويسد فقره، فكم من ساكن كوخ يتقلب بين ألوان السعادة، ويفيض بها على أهله، بينما صاحب قصر يتقلب بين ألوان الفقر والتعاسة لا تفارقه، والله وحده هو الذي يملك أن يُنعم عليك بهذا الرزق القلبي والنعمة غير الملموسة، مما يسد حاجات النفس وجوعها لتشعر بالشبع والغنى، ليس غير الله، والغنى الذي نعنيه هو ما أبانه النبي ﷺ في قوله:

«ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغِنَى غِنَى النفس»[١].

ولاحظ رمزية الاسم ودلالته، فسمّى كثرة المال والمتاع عرَضا لأنه عارض يعرض وقتا ثمَّ يَزُول، أما غنى النفس فهو الغنى الدائم الذي لا يفارق العبد حتى يلقى ربه.

ويؤكِّد النبي هذا المعنى مرة ثانية لتتشرَّبه قلوب أصحابه، فلا يغيب عنهم في شدة أو رخاء، ولا ضيق أو سعة، فخاطب **أبا ذر الغفاري** رضي الله عنه يومًا قائلاً:

يا **أبا ذر**! أترى أن كثرة المال هو الغنى؟

قال **أبوذر**: نعم يا رسول الله.

قال: فترى قلة المال هو الفقر؟

قال **أبوذر**: نعم يا رسول الله.

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم «٥٣٧٧».

قال ﷺ:

«إنما الغنى غنى القلب، والفقرُ فقر القلب»[(١)].

وفي رواية أفصح ذات شرح أوضح:

«من كان الغنى في قلبه فلا يضُرُّه ما لقي من الدنيا، ومن كان الفقر في قلبه فلا يغنيه ما أُكثِر له في الدنيا، وإنما يضُرُّ نفسَهُ شُحُّها»[(٢)].

وشرح هذا أن حقيقة الغنى هي انتفاء الحاجة، والحاجة أن تريد الشيء ولا تجده، وكثير المال صاحب الملايين الكثيرة والكنوز الغالية الثمينة إذا غلبه الحرص، واستولى عليه الشَّرَه لا يحصِّل صفة الغنى، ولا تنتفي عنه حالة الفقر، وذلك مع بقاء حرصه الذي يجعل حاجته دائمة، وشرهه لا يتوقف مهما حصَّل من زيادة، ليمتلأ قلبه بنار الطمع التي تأكل كل ما ألقي إليها من أموال ونعم.

ولذا قال **أبو حاتم البستي**:

«القناعة تكون بالقلب، فمن غني قلبه غنيت يداه، ومن افتقر قلبه لم ينفعه غناه»[(٣)].

ولهذا أفصح **أبو العتاهية** عن أن الحرص لا يشيب، وأن جوع النفس لا يُسَدُّ، وكأن النفوس البشرية قد فوَّضته بالحديث عنها، فانطلق يقول:

قد شاب رأسي ورأس الحرص لم يَشِبِ إن الحريص على الدنيا لفي تعب

مالي أراني إذا حاولت منـزلة فنلتُها طَمِحَتُ نفسي إلى رتب

(١) صحيح: رواه ابن حبان كما صحيح ابن حبان رقم: ٦٨٥، وعلَّق عليه الشيخ شعيب الأرنؤوط بقوله: إسناده صحيح على شرط مسلم - ط مؤسسة الرسالة.

(٢) صحيح: رواه النسائي وابن حبان عن أبي ذر كما في صحيح الترغيب رقم: ٨٢٠. **الفائدة السادسة عشرة:** وفقر القلب في حقيقته هو خلوه من الافتقار إلى ربه في كل حال، وحرمانه من مشاهدة شدة احتياجه إلى الله تعالى وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فإذا افتقر العبد إلى ملك الملوك في جميع أحواله وأموره، وتحقق أنه وحده المعطي المانع الضار النافع، ففزع إليه في كل شؤونه، وأثمر ذلك ولابد غنى نفسه عن ما سوى الله.

(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ١٥١ -ابن حبان البستي- دار الكتب العلمية.



وبالغنى أوصى **سعد بن أبي وقاص** ﵁ ولده **عمر** قائلاً:

«يا بني! إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإن لم تكن لك قناعة فليس يغنيك مال»[1].

فالغنى في القناعة، والفقر هو الطمع، فالطمع ضد القناعة كما خطب بذلك **عمر** ﵁:

«أتعلمُنَّ أن الطمع فقر، وأن الإياس غنى، وأن المرء إذا أيس من شيء استغنى عنه»[2].

يا محسنون.. ما أقبح الطمع!! حتى حروف كلماته لما تأملها **أبو العباس المرسي** قال: الطمع ثلاثة أحرف كلها مجوفة: «ط م ع» فصاحبه بطن كله لا يشبع أبدًا.

ترك المطـــامع للفتى شـرفٌ له ... حتى إذا طمِع الفتى ذَلَّ الشرف

هو ذلٌّ لا يفارق صاحبه كما قال **صرَّدُر**:

تذل الرجال لأطماعها ... كذُل العبيــد لأربــابها

وكما يأتمر العبد بأمر سيده ولا يعصي له أمرًا، فكذلك عبد الطمع، يأتمر بأمر مطامعه ويستسلم لهذه العبودية المزرية، ولذا أنشد شاعرهم يندب حظه ويشكو همه، وقد وضع قيد الذل حول قدميه مهانة وصغارا، وأدخل نفسه سجن رغباته طوعا واختيارا حتى قال **أبو العتاهية**:

أطَعتُ مطامعي فاستعبدتني ... ولــو أنــي قنعت لكنتُ حُــرًّا

هي عبوديةٌ إذن واستسلام، بل ذلٌّ وخضوعٌ وقيود هوان، وأجيبوني بالله:

* هل يكون غنيًا من نفسه لما في أيدي الناس متطلعة.. وليست بما لديها قانعة؟

* هل يكون غنيًا من يشتهي طعامًا شهيًا، أو ثمرًا جنيًا، أو لباسًا غاليًا، حتى إذا ما حازه طمع في غيره؟!

* هل يكون غنيًا من يلعن حظه إن سبقه غيره إليه، ونال ما لم ينل! فيأبى حب المال إلا

---

(١) عيون الأخبار ٣/ ٢٠٧ –ابن قتيبة الدينوري – دار الكتب العلمية.

(٢) الزهد لوكيع ٣/ ٤٢٦ –وكيع بن الجراح – مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

التنغيص عليه؟

* هل يكون غنيا من ينظر دوما إلى فوق ولا تحت عنده؟!

بين غني وفقير!

هذا أحد الأغنياء يفتخر على فقير بِسَعَة رزقه وكثرة ماله، فيرُدُّ عليه الفقير الذي امتلأ قلبه بألوان من الغنى والثراء لم يتذوقها هذا الغني ويقول:

يا عائب الفقر ألا تزدجرُ — عيب الغنى أكبر لو تعتبرُ
مِنْ شَرَف الفقر ومِنْ فَضْلِه — على الغنى إن صح منك النظرُ
أنك تعصي كي تنال الغِنَى — ولست تعصي الله كي تفتقرْ

سادة الأغنياء!

إن غنيَّ النفس نموذج فريد، فهو مطمئن القلب، هادىء البال، لا يُلِحُّ في سؤال، ولا يلهث خلف مال، ولا تنقطع نفسه حسرات إذا خسر صفقة من الصفقات، أو ضاعت عليه فرصة من الفرص السانحات، لذا فهو بين الناس ملك متوَّج، وأميرٌ مدلَّل إذ لم يحتج إلى معونتهم، ولم يُرِق ماء وجهه في مسألتهم، واسمعوا خبر الأغنياء الحقيقيين على لسان واحد منهم وهو **الحسن بن صالح** حين قال:

«ربما أصبحت وما معي درهم، وكأن الدنيا قد حيزت لي!»[1].

وفي تاريخنا المعاصر يحدِّثنا **براء نزار ريان** عن والده الدكتور **نزار ريان**، وعن غناه الذي يمثِّل حالة زهدية عجيبة في عصر المادية الطاغية فيقول:

«قال لي مرة: والله يا براء ما رأيتُ الناس ازدحموا على شيء إلا عافتهُ نفسي، وتركتُه في

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٦٩.



سبيل ربي.. رحمه الله ما أكبره».

ومن هؤلاء الأغنياء رغم خلو جيوبهم، الأثرياء بسخاء نفوسهم:

عبد له أخلاق الأشراف!

ولأنهم الأغنياء بحق، فقد جادوا بما لديهم ولو كان كل ما يملكون، لأن غناهم في قلوبهم، وثروتهم في أرواحهم، وتحت العنوان السابق أورد **محب الدين الخطيب** في حديقته خبرًا عن أحد هؤلاء الأغنياء الذين تزينوا بثياب الفقراء، الأعزة على هيئة الأذلاء عبدٌ زنجي عجيب؛ مرَّ به **عمر بن عبيد الله بن معمر** «وهو أمير البصرة» به وهو يأكل عند حائط «مزرعة» في المدينة، وبين يديه كلب إذا أكل لقمة طرح له لقمة!

فقال **عمر بن عبيد الله**:

أهذا الكلب كلبك؟

قال: لا.

قال: فلم تطعمه مثل ما تأكل؟!

قال: إني أستحي من ذي عينين ينظر إليَّ أن أستبدَّ بمأكول دونه!

قال: أحُرٌّ أنت أم عبد؟

قال: عبدٌ لبعض بني عاصم، فأتى عمر ناديهم فاشتراه واشترى الحائط، ثم جاءه فقال:

أشعرت أن الله أعتقك؟

قال: الحمد لله وحده، ولمن أعتقني بعده.

قال: وهذا الحائط لك.

قال: أشهد على أنه وقف على فقراء المدينة.

قال: ويحك.. تفعل هذا مع حاجتك!

قال: إني أستحي من الله أن يجود لي بشيء فأبخل به عليه![1].

أما من كثر ماله وتشعبت أملاكه، حتى لم يعُد له همٌّ سوى جمع المال، يميل معه قلبه حيث مال، ويتمنى لو أن ما في أيدي الناس تسرب إلى يده، فهذا يحسد ويتألم ويتبرم ويتململ، فهو الفقير كل الفقر، ولهذا أرسوها قانونا رسَّخته التجارب والمشاهدات:

من لم يقنع باليسير لم يُشبِعه الكثير.

ولذا صنع الفضيل بن عياض ميزانا دقيقا وزن به أقدار الرجال من حيث الغنى والفقر، فلما جاءه مُحُبٌّ له قائلاً:

هذه جُبَّة أحب أن تقبلها مني.

قال: إن كنتَ غنيًّا قَبِلْتُها، وإن كنتَ فقيرًا لم أقبلها.

قال: أنا غني.

قال: كم عندك؟

قال: ألفان.

قال: تود أن تكون أربعة آلاف؟

قال: نعم.

قال: فأنت فقير؛ لا أقبلها منك!![2].

ذلُّ العبودية لغير الله!

في صحيح **البخاري**:

«تعِس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أُعطِي رَضي، وإن لم يُعْطَ سخِط،

---

(١) الحديقة ١٣٥٤-١٣٥٥ - محب الدين الخطيب - المكتبة السلفية.

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٤٧.



تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[١].

وزاد في رواية **ابن حبان**:

«وعبد القطيفة»[٢].

والتعبيد هو التذليل للشيء، ومنه الأرض المعبَّدة، أي المذللة الممهدة، ويقال: عبَّد الطريق أي قام بتذليله وأزال العقبات التي تعترضه من أجل أن تصير مهيَّأة للسير عليها، ولذا فالمعنى أنه صار عابدا لدنياه حيث طوَّع نفسه لها، فنفسه مذللة لطلب الرزق بأي طريق ولو كان حراما، بل لا يعترض طريق الحرام لديه أي عقبة، فيتسلل إلى يده وبيته دون أدنى مشكلة.

وفي هذا توسيع لمعنى العبودية ليكون كما في تعريف **أبي علي الداق**:

«أنت عبد من أنت في رِقِّه وأسره، فإن كنت في أسر نفسك فأنت عبد نفسك، وإن كنت في أسر دنياك فأنت عَبْد دنياك»[٣].

وليس في الحديث تكرار، فالدينار غير الدرهم، والدرهم غير القطيفة والخميصة، فالدينار يشير إلى النقود المضروبة من الذهب، والدرهم هي الفضة المضروبة التي كان الناس يتعاملون بها نقدا، فإما أن يكون الإنسان عبدًا للمال الكثير بأن يكون عظيم الثراء صاحب أراضي وضياع، وقد عبَّر عنه في الحديث بقوله **«عبد الدينار»**، أو أن يكون قليل المال يشكو ضيق العيش وقلة ذات اليد، لكنه شرِه يطلب المال بأسرع وقت وأقصر سبيل، ليلحق بركب الأثرياء ويطلِّق عيشة الفقراء، وقد عبَّر عنه بقوله **«عبد الدرهم»**.

وأما **«عبد الخميصة»**، فالخميصة هي ثوب الحرير أو الصوف، وخصَّها هنا بالذكر لأن الغالب في لبسها الفخر والسمعة والتباهي، ومن اعتاد هذا لا يطيق فراقه، فكأنه عبدٌ لملبسه ومظهره، ليكون أعظم ما يشغل قلبه ويملأ همه، ولذلك أوصى بعض السلف في شأن

(١) صحيح: رواه البخاري وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٩٦٣.
(٢) صحيح: رواه ابن حبان عن أبي هريرة كما في صحيح ابن حبان رقم: ٣٢١٨.
(٣) الرسالة القشيرية ٢/ ٣٤٨ - دار المعارف.

الثياب:

«البس من الثِّياب ما يخدمك، ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه»[١].

وأما «**عبد القطيفة**»، فهذا فريق همه تجميل أثاثه وتزويق بيته، بل وتغييره من غير حاجة، فمن فاخر إلى أفخر، ومن واسع إلى أوسع، حتى صاروا عبيدا للقطيفة وما حول القطيفة!

ثم ذكر النبي ﷺ من حال هذا العبد أنه:

«**إن أُعطِي رَضي، وإن لم يُعْطَ سخِط**».

فإذا أنعم الله عليه بمال فرح ورضي، وإذا لم يُعطِه واختبره بالفقر تسخط حتى صدق فيه قول ربه:

﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ**﴾[٢].

ويعلّق علامة القلوب **ابن القيِّم** على هذا الحديث فيقول:

«فسمَّى هؤلاء الذين إن أُعطوا رضوا، وإن مُنِعوا سخطوا عبيدا لهذه الأشياء لانتهاء محبتهم ورضاهم ورغبتهم إليها، فإذا شُغِف الإنسان بمحبة صورة لغير الله بحيث يُرضيه وصوله إليها وظفره بها ويسخطه فوات ذلك كان فيه من التعبّد لها بقدر ذلك»[٣].

قال النبي ﷺ: «**تعس وانتكس**»، فدعا عليه بالتعاسة والانتكاس، فأما التعاسة، فهي من «تعِس: ومعناه انكبَّ فعثر فسقط على يديه وفمه، والتَّعْسُ أيضا: الهلاك»[٤].

وأما الانتكاس فهو من «انتكس الإنسان»: سقط على وجهه، وانتكس المريض بمعنى: أنه لما قارب شفاؤه وصحته إذا به ينقلب فيصير أشد مما كان، فهو تغير من وضع إلى أسوأ.

---

(١) فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥٩٧.

(٢) في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾: كان الرجل يقدُم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما، ونُتِجَتْ خيله، قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تُنْتَجْ خيله، قال: هذا دين سوء.

(٣) إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان ٢/ ١٤٩ – ط مكتبة المعارف.

(٤) لسان العرب ٦/ ٣٢ – ابن منظور – دار صادر.



ومن وصل به الحال إلى ذلك فإنه تعيس في الدنيا والآخرة؛ لأنه باع دينه بدنياه، واستبدل الخزف بالجوهر، وهو مع ذلك لن يحصِّل من دنياه إلا ما قُسِم له، وهذا الإنسان اشترى لا شيء بأعظم شيء، فأي عقل في إنسان كهذا!

وهي مفارقة عجيبة أن يقضي الله بالحرمان من السعادة على من التمسها من هذا الطريق، وليته كان الحرمان وحده، بل ومعاقبة العبد بضد السعادة من التعاسة والألم، وذلك لأنه التمس سعادته من طريق غير طريق ربه، فجعل الله شقاءه في ما ظن أن فيه نعيمه!

«وإذا شيك فلا انْتُقِش»:

وهو استمرار في الدعاء النبوي عليه أن إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها أي إخراجها بالمنقاش، بمعنى أنه إذا وقع في بلاء فلا يرجون له أحد الرحمة، ولا يُشفقن عليه بشر، فإن من وقع في البلاء إذا واساه الناس فلربما هان الخطب عليه، وتسلى عن مصيبته واستروح، لكن هذا العبد على النقيض، تزداد آلامه بفرح أعدائه وشماتتهم فيه، «وإنما خصَّ انتقاش الشوك بالذكر لأن الانتقاش أسهل ما يتصور من المعاونة لما أصابه مكروه، فإن نفى ذلك الأهون فيكون ما فوق ذلك منفيا بالطريق الأولى»[1].

أنت إذن على الخيار!

والأمر بيدك: أن تكون عبدا لله بكليتك أو تشرك في عبوديته إلها آخر!

أن تكون حرًا أو تستذل لشهوة أو هوى..

أضلاع الغنى الثلاثة!

حيث جاء رجلٌ إلى **عبد الله بن عمرو بن العاص** رضي الله عنه فسأله قائلاً: ألسنا من فقراء المهاجرين؟! فقال له **عبدُ الله**: أَلَكَ امرأةٌ تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكنٌ تسكنُه؟

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٨/ ٣٢٢٩.

قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال الرجل: فإن لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك[1].

وهو تطبيق عملي لقول النبي ﷺ:

«من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[2].

ولا يدرك هذا إلا العقلاء الأتقياء، بل ولا يشعر به سوى أحياء القلوب وأصحاب البصائر المؤمنة، وهي معادلة فهموها، فلم تجزع قلوبهم لفوات متعة أو ضياع لذة، فقد أدركوا أن السعيد لا يأكل أكثر مما يأكل الناس، ولا يملك أكثر مما ملكوه، لكن مفتاح سعادته وسر سكينته: أنه يُرضيه أقل كثيرا مما يُرضي غيره، ولهذا لما قيل لأحد الحكماء: ما الغنى؟! قال:

«هو قلَّة تمنيك، وقنعك بما يكفيك»[3].

وببلاغة **الرافعي** يترسَّخ هذا المعنى في القلب حين يقول:

«وهي أن الأشياء الكثيرة لا تكثر في النفس المطمئنة، وإذا لم تكثر الأشياء الكثيرة في النفس، كثرت السعادة ولو من قِلة»[4].

ولذا أنشد أحد هؤلاء السائرين في قافلة السعداء في سرور:

بيتي أحب إليَّ من	بيت الخليفة والوزير
فإذا أكلت كُسَيرةً	وشربت من ماء الغدير
فأنا الخليفة لا الذي	يُعلى به أعلى السرير
إن القليل إذا صفا	وكفى ينوب عن الكثير

---

(١) الترغيب والترهيب ٤/ ٧٨.

(٢) حسن: رواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بم محصن كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠٤٢.

(٣) فيض القدير ٤/ ٢٨٢ - عبد الرؤوف المناوي - المكتبة التجارية الكبرى.

(٤) وحي القلم ١/ ٢٨- دار الكتب العلمية.



تحذير هام!

لكن هذا لا يعني أبدا القناعة المذمومة والرضا بالدون التي قيل فيها: من اتخذ القناعة صناعة تلحَّف بالخمول، وفاتته معالي الأمور، ولذا قال بعضهم عن هذه القناعة المُقعِدة: القناعة من أخلاق العجائز والزمن العاجز، ولقد اعتبرها **الرافعي** طبع المواشي والبهائم حتى قال:

رأَتْ عزماتي وفَرط انكماشي ... وطول التّململ فوق الفراش

فقالت أراك أخًا همّة ... ستبلغها فترى ذا انتعاش

فهلا قنعت ولم تغترب ... فقلت: القناعة طبع المواشي

ولقد ذمَّ أمير الشعراء **أحمد شوقي** هذا اللون من القناعة ومدح المضاد له «الطموح» في بيت شعر واحد حين قال:

شبابٌ قنَّعٌ لا خيرَ فيهم ... وبورك بالشبابِ الطامحينا

المعنى الثاني: الغنى عن الناس:

دخل رجل البصرة فقال: من سيد هذه القرية؟ فقالوا: **الحسن البصري**، فقال: بم سادهم؟ قالوا:

«احتاجوا إلى علمه واستغنى عن دُنياهم»[1].

وهذا الاستغناء عمل إيماني جليل وعبادة قلبية عظيمة، وقد جاء في حديث **أبي سعيد الخدري**:

«ومن يستغن يُغنه الله»[2].

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ٢٠٦.

(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن أبي سعيد الخدري كما في صحيح الجامع رقم: ٥٨١٩.

ومعناه:

«أن من يتكَلَّف فعل ما يؤدي إليه اجتهاده، ينعم الله عز وجل عليه بما لا يدخل تحت وسعه»[1].

ووعد نبينا لنا في قوله «يُغنه الله» يأتي وفاؤه عن أحد طريقين: فإما أن يخلق الله في قلبه غنى يغنيه عن غيره، وإما أن يرزقه ما يستغنى به عن الخلق.

فأدِّ ما عليك واصدق مع الله في طلب الاستغناء عن خلقه يسبغ الله عليك من فضله ويُغنِك عن غيره[2]، وهذا الاستغناء من تمام عبوديتك لله، بل لا تتم العبودية إلا به، وهو في حقيقته مكافأة لك من ربك:

كلما قوي تعلقك بالله ضعف تعلقك بالمخلوقين، لأن افتقارك إلى الله هو في حقيقته استغناء به عن غيره.

والحقيقة أن الناس أفقر من أن يغنوك وأضعف من أن يساعدوك، فالغنى هو في حقيقته اسم للمُلك التام الذي لا يزول، وعلى هذا فلا يستحق اسم الغني على الحقيقة إلا الله، وكل ما سواه فقير إليه، ولذا كان الافتقار إلى الله سبحانه هو عين الغنى، فأفقر الناس إليه أغناهم بين خلقه، وأذلهم له أعزهم في عباده، وأضعفهم بين يديه أقواهم عزيمة وبأسًا، ولذا قال الشاعر مقارنًا بين سؤال العباد وسؤال رب العباد:

إذا عَرَضت لي في زماني حاجة ... وقد أشكلت فيها عليَّ المقاصد
وقفتُ بباب الله وقفة ضارعٍ ... وقلتُ إلهي إنني لك قاصد
ولستَ تراني واقفا عند باب من ... يقول فتاه سيدي اليوم راقد

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين ٣-١٢٧ ط دار الوطن الرياض.

(٢) **الفائدة السابعة عشرة**: وفي المقابل يؤكِّد العلامة **عبد الرحمن السعدي** هذه القاعدة الجليلة: «لما كان من العوائد القدسية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكن الانتفاع به ولم ينتفع، ابتُلِي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن ابتُلِي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه ابتُلِي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذلّ لربه ابتُلِي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتُلِي بالباطل». تفسير السعدي ١/ ١٨.



وهي مفتاح العزة وعنوان الأنفة والشموخ نتعلمها من الزاهد الحق **الحسن البصري**:

«لا تزال كريمًا على الناس، ولا يزال الناس يكرمونك ما لم تَعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك وأبغضوك»[١].

وقد أنشد **الشافعي** مفتخرًا بعزة العلماء، وكيف ترفعوا به عن عزة السلطان:

رأيـتُ القنـاعـةَ رأسَ الغِنَـى فصِـرْتُ بأذيـالِها ممتَسِـكْ
فـلا ذا يـرانِي عـلـى بابِـهِ ولا ذا يـرانِي بـه منهَـمِـكْ
فصـرْتُ غنِيـًّا بـلا دِرْهَـمٍ أمُرُّ علَـى النـاسِ شبـهَ الملِكْ

لا حاجة بي إليك!

وجَّه **سليمان بن علي المهلبي** والي الأهواز إلى **الخليل بن أحمد الفراهيدي**[٢] لتأديب ولده، فأخرج الخليل لرسول **سليمان** خبزًا يابسًا وقال: ما دمت أجد هذا، فلا حاجة بي إلى **سليمان**، فقال الرسول: فما أبلغه عنك؟ قال:

أبلـغ سليمـان أني عنـه في سعة وفي غنـى غيـر أني لسـتُ ذا مال
الفقر في النفـس لا في المال نعرفه كذاك أمر الغنـى في النفس لا المال
إن كـان ضـنَّ سليـمـان بنـائلة فالله أكـرم مـسـئـول لسُـؤّال

ومثله في عزة النفس وعراقة الطبع الإمام الرباني القدوة زينة أهل البصرة **محمد بن واسع** الذي كان يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله وهو يقول:

«من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد!»[٣].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ٣/ ٢٠.
(٢) **الفائدة الثامنة عشرة: الخليل بن أحمد** هو أول من جمع حروف المعجم في بيت واحد وهو من البسيط:
صِف خَلقَ خَودٍ كمثل الشمس إذ بَزَغَت يَحظـى الضَجيعُ بها نـجـلاء معطـار
(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٣٩.

وهؤلاء أقوام أقبلوا على مطامعهم، فذبحوها بسكين اليأس، فطلَّقوا الهوان إلى غير رجعة، وتقلدوا قلادة الغنى مدى الدهر، ولذا قال الشافعي قبلهم وقد أنابوه في التحدث باسمهم:

أمتُّ مطامعي فأرحتُ نفسي ... فإن النفس ما طمِعت تهون

وأحييتُ القنوع وكان مَيِّتا ... ففي إحيائه عرضٌ مصونُ

إذا طمعٌ يحُلُّ بقلب عبدٍ ... علَتْه مَهانةٌ وعلاه هونُ

مع أنه لا يملك من الثياب ما غلا، فمظهره لا يدل على جوهره، كقطعة الماس الثمينة تسكن كهفًا من الحجارة، أو قطعة زمرد مدفونة في الرمال، ولذا أردف **الشافعي** يقول:

عليَّ ثياب لو تُقاسُ جميعها ... بفلس لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو يُقاس ببعضها ... نفوس الورى كانت أجلَّ وأكبرا

وما ضرَّ نصل السيف إخلاق غمده ... إذا كان عضبا حيث وجَّهتهُ برى

وهو ما جعل الناس تسعى إليه، والملوك يذلون بين يديه، ومن ثمَّ أرسلها **سعيد بن المسيب** هدية لكم من غير سؤال:

«من استغنى بالله افتقر الناس إليه!»[١].

ولهذا فهو صاحب مال لا يراه الناس، وثراء يتنافس عليه الناس.

قيل **لأبي حازم**: ما مالك؟ قال: شيئان:

«الرضا عن الله، والغنى عن الناس»[٢].

وفي هذا المضمار عقد **ابن تيمية** مقارنة رائعة بين سؤال الخلق وسؤال الخالق، ليغريك بأن تسلك الطريق الأضمن والسكة الأقصر بما يكفل لك الجزاء الأوفى والربح الأعلى،

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٧٣.
(٢) أدب الدنيا والدين ١/ ١١٤.

فقال:

«فالرب سبحانه: أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه وأفقر ما تكون إليه، والخلق: أهون ما يكون عليهم أحوج ما يكون إليهم»[١].

ومن كرم الله على هذا «العبد الغني» ومكافأته له أن ينعم عليه بجائزة المحبة كما قرَّر ذلك رسول المحبة:

«إن الله تعالى يحب العبد التقي الغني الخفي»[٢].

تربية نبوية!

وهي تربية النبي ﷺ لأصحابه: أن لا يستعينوا بغير الله، ولا يريقوا ماء وجوههم إلا في سجدة خاشعة يدعون فيها الله، واسمع نصيحة النبي ﷺ حين أوصى **أبا ذر**:

«لا تسأل الناس شيئا ولا سوطك وإن سقط منك حتى تنزل إليه فتأخذه»[٣].

سبحان الله!

أي عزة يغرسها فينا هذا النبي!

وإذا نهى عن سؤال شيء حقير كهذا، فكيف بالشأن الأكبر؟!

ولقد غرس هذا المعنى في قلوب الجميع حتى البسطاء والفقراء والعبيد! **فثوبان** -وهو مولى رسول الله- استقبل بقلبه بذور العزة والكرامة حين سمع رسول الله ﷺ يسأل جمعًا من الصحابة:

«من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئا وأتكفَّل له بالجنة».

---

(١) مجموع الفتاوي ١/ ٣٩، ٤٠ -مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية- المملكة العربية السعودية.
(٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن سعد بن أبي وقاص كما في صحيح الجامع رقم: ١٨٨٢.
(٣) صحيح: رواه أحمد عن أبي ذر كما في صحيح الترغيب رقم: ٨٠٤.

قال له **ثوبان**: أنا، فكان لا يسأل أحدا شيئا[1].

بل كان هذا الاستغناء عن الناس ما بايع عليه النبي ﷺ نفرًا من أصحابه منهم **عوف بن مالك** رضي الله عنه، وكان من بنود هذه البيعة:

«ولا تسألوا الناس شيئًا».

ولقد روى بعدها **عوف بن مالك** امتثال أصحابة لأمر نبيهم فقال:

«فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه، فما يسأل أحدا أن يناوله إياه»[2].

إذا لم يَأْتِكَ المعروف عَفْوًا ... فَدَعْـــهُ فالتَّنــزُّه عنه مالُ
وكيــف يَلَذُّ ذو أَدَبٍ نـــوالا ... ومِنْه لِوَجهه فيــه ابتـذالُ
إذا كان السُّــؤال بِذُلِّ وجْهٍ ... وإلْحَــاحٍ فلا كـان النَّـوالُ

ولذا كان من جميل مواعظ **ابن الجوزي** التي أتحفنا به في كتابه المدهش الذي سماه «المدهش»:

«لا تسألوا سوى مولاكم، فسؤال العبد غير سيده تشنيع عليه»[3].

تشنيع عليه لأن سؤال غير الله هو اتهام ضمني منك لربك بالبخل حاشاه، ودلالة على تقديمك غيره عليه من حيث لا تشعر، وهو ما يخدش إيمانك بل ورجاحة عقلك، وخاطب الجنة يربأ بنفسه عن مثل هذا السَّفه، وهو ما فهمه **أبو يزيد البسطامي** حين قرَّر في تشبيه بليغ:

«استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق»[4].

ولأن مفاهيم الصالحين واحدة فقد صاغ الشيخ **أبو عبد الله القرشي** نفس المعنى بكلمات

(١) صحيح: رواه أبوداود عن ثوبان كما في صحيح أبي داود رقم: ١٤٥٠.
(٢) صحيح: رواه أبوداود عن عوف بن مالك كما في صحيح أبي داود رقم: ١٤٤٩.
(٣) المدهش ص ٢٦٧.
(٤) فتاوى ابن تيمية ١/ ٣٣٠.



مغايرة:

«استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون»[١].

ولهذا كان من جميل دعاء الإمام **أحمد** الذي يدعو به دُبُر كل صلاة ليغرس هذا اللون من الغنى في قلبه وقلوبنا:

«اللهم كما صُنتَ وجهي عن السجود لغيرك صُنْه عن المسالة لغيرك»[٢].

ولو صبر لكان خيرا له!

وعلى النقيض من هذا، فلو أردت أن تعلم المهانة التي تلحق سائل الناس، والذلة التي تكسو وجهه، فاسمع خبر **عُرْوَة بن أذينة**، وهو من شعراء المدينة، وكان معدودًا في الفقهاء والمحدِّثين، وذلك حين ضاقت به الحال، فقالوا له: إن لك صحبة **بهشام بن عبد الملك**، فاذهب إليه ينالك من خير الخلافة، وبالفعل سافر **ابن أذينة** إلى صديقه، وضرب إليه أكباد الإبل حتى بلغ الشام، واستأذن فأُذِن له، واستقبله صاحبه، وسأله عن حالة فقال **عروة**: في ضيق وشدة، فقال له **هشام**:

يا **عروة** ألست القائل:

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خُلقي ... أن الذي هـو رزقي سـوف يأتيني

أسعـى لـه فيعييـني تَطلّبُـه ... ولـو قَعَـدْتُ أتـاني لا يُعنِّيني

وأراك قد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق!

فقال **عروة**:

والله لقد بالغتَ في الوعظ، وأذكرتني ما أنسانيه الدهر، وخرج من فوره إلى راحلته فركبها، وتوجه راجعًا إلى الحجاز، فلما كان الليل ذكره **هشام** وهو في فراشه، فقال لنفسه:

(١) فتاوى ابن تيمية ١/ ٤٨٤.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٤٨٤.

رجلٌ من قريش قال حكمة، ووفد إليك فرددتَه عن حاجته، وهو مع ذلك شاعر لا آمن ما يقول، فلما أصبح هشام سأل عنه فأُخبر بانصرافه، فقال: لا جرم.. ليعلم أن الرزق سيأتيه، ثم دعا مولى له وأعطاه ألفي دينار، وقال: الحق بهذه **ابن أذينة** وأعطه إياها.

قال: فلم أدركه إلا وقد دخل بيته، فقرعتُ الباب عليه، فخرج إلي فأعطيته المال، فقال: أبلغ أمير المؤمنين قولي:

سعيتُ فأكديتُ، ورجعت إلى بيتي فأتاني رزقي![1].

سبحان الله.. أذل نفسه وأهانها، ولو صبر وقنع لطلبه رزقه في عقر داره، كما تغنى بها ابن أذينة شعرًا وقولاً، لكنه غفل عنها سلوكًا وعملاً، ولو أنه تعلّم ما تعلَّمه **عبيد بن الأبرص** لكان خيرا له:

من يسأل الناس يحرِموه   وسائلُ الله لا يخيب

وهي الملاحظة التي رآها **ابن رجب** في ما رأى:

«فمن سأل الناس ما بأيدهم كرهوه وأبغضوه؛ لأن المال محبوب لنفوس بني آم، فمن طلب منهم ما يحبونه كرهوه لذلك»[2].

التحرير مقصد العبادات

وما شرع الله العبادات إلا لغايات جليلة منها عملية التحرير من براثن هذه العبودية لغير الله! وأضرب لهذا مثلاً واحدًا، وهو عبادة الصوم التي قال عنها **المناوي**:

«إنما شرع الصوم كسرًا لشهوات النفوس، وقطعًا لأسباب الاسترقاق والتعبد للأشياء، فإنهم لو داوموا على أغراضهم لاستعبدتهم الأشياء، وقطعتهم عن الله، والصوم يقطع أسباب التعبد لغيره، ويورث الحرية من الرق للمشتهيات، لأن المراد من الحرية أن يملك

(١) ثمرات الأوراق ١/ ٨ بتصرف يسير -ابن حجة الحموي- مكتبة الجمهورية العربية
(٢) جامع العلوم والحكم ٢/ ٢٠٥ - ابن رجب الحنبلي - مؤسسة الرسالة.



الأشياء لا تملكه، فإذا ملكته فقد قلب الحكمة، وصيَّر الفاضل مفضولا، والأعلى أسفلا، ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤]، والهوى إله معبود، والصوم يورث قطع أسباب التعبد لعبده»[١].

المعنى الثالث: الغنى بالله

وهو اللون الثالث من الغنى كما في قول ربنا:

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

قال **ابن حجر** في الفتح في تفسيرها:

«يتنزل على غنى النفس، فإن الآية مكية، ولا يخفى ما كان فيه النبي ﷺ قبل أن تُفتح عليه خيبر وغيرها من قلة المال»[٢].

فلم يكن غناه ﷺ أكثر من إيجاد قوت يومه، فقد كان رزقه كفافا، لكن كان الغنى كله في قلبه ثقة بربه وسكونا إلى تدبيره وتوكلا عليه، وهو ما امتن الله به عليه حين امتنَّ عليه بالنعمة الكاملة.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

وما النعمة الكاملة؟!

النعمة -على الحقيقة- هي ما لا يقطعك عن المنعم بل يوصلك إليه.

والغنى بالله هو ثمرة من ثمار الافتقار إليه وحده، ولقد شرحه **ابن القيم** وأجاد في كتابه طريق الهجرتين:

«ولما كان الفقر إلى الله عز وجل هو عين الغنى به، فأفقر الناس إلى الله أغناهم به، وأذلهم له أعزهم، وأضعفهم بين يديه أقواهم، وأجهلهم عند نفسه أعلمهم بالله، وأمقتهم لنفسه

---

(١) فيض القدير ٤/ ٢١١ - عبد الرؤوف المناوي- المكتبة التجارية الكبرى

(٢) فتح الباري ١١/ ٢٧٣.

أقربهم إلى مرضاة الله كأن ذكر الغنى بالله مع الفقر إليه متلازمين متناسبين»[١].

جوامع الغنى!

اجتمع جماعة من الصالحين، فتذاكروا الفقر والغنى، فقال بعضهم:

الغني من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد من عيش يكفيه عن فضول الدنيا.

وقال بعضهم:

الغني من لم يحتج إلى الناس، فقيل **لسليمان الخواص**:

ما تقول أنت يا **أبو أيوب**؟!

فبكى ثم قال:

«رأيتُ جوامع الغنى في التوكل، ورأيت جوامع الشر في القنوط، والغني حق الغنى من أسكن قلبه إلى الله من غناه يقينًا، ومن معرفته توكلاً، ومن عطائه وقسمته رضًا، فكذلك الغني حق الغنى وإن أمسى طاويًا «جائعًا» وأصبح معوزًا (محتاجًا)، فبكى القوم جميعًا من كلامه»[٢].

ألوان من الغنى بالله!

هو الغنى بالحسنات، والإحساس بالثراء على قدر ارتقائك في الدرجات، والإحساس بالاصطفاء الإلهي حين يُنعِم عليك بألوان القُربات، فحين تسمع قول النبي ﷺ:

«والله لأن يهدى بهداك واحد خيرٌ لك من حمر النَّعَم»[٣].

تكتشف بابا آخر من ألوان الغنى عن طريق الدعوة إلى الله، وانتشال عبد من الظلمات،

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ٣٣ – ط دار السلفية.

(٢) المستظرف في كل فن مستطرف ١/ ١٥١ – شهاب الدين الأبشيهي – عالم الكتب.

(٣) صحيح: رواه أبو داود عن سهل بن سعد كما في صحيح الجامع رقم: ٧٠٩٤.

وإنقاذه من جحيم السيئات.

وحين تقرأ:

«ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[1].

تعلم أن من عباد الله من لا يكاد يجد قوت يومه، لكنه في حقيقة الأمر في قمة الثراء عن طريق يقظة في البكور وسير في الظلمات.

وحين تقرأ:

«غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»[2].

أو تقرأ:

«غدوة في سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس وغربت»[3].

تحدِّث نفسك بالجهاد في سبيل الله، وترى فراق الأهل والأموال هو ثمن لازم يدفعه المجاهد للفوز بثواب أعلى، ثواب لو برز إلى الدنيا لاضمحلت وتلاشت من روعته وعظمته، والثمن:

غدوة إلى ساحات الجهاد من أول النهار إلى انتصافه، أو روحة من بعد الزوال إلى آخر النهار.

وهذا الغنى لا يشعر به أي أحد، بل من أنعم الله عليهم بحياة القلوب، وهؤلاء حين يرون غيرهم «فقراء» إلى ما اختصهم به الله من فضل، ويعانون من «مجاعات» إيمانية و«فاقات» روحية؛ يدفعهم ذلك إلى أن «ينفقوا» من «كنزهم»، فيبذلون «دعوة» إلى الخير و«نصيحة» تردع عن الهوى.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والنسائي عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٥١٧.
(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد وابن ماجة عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٤١٥١.
(٣) صحيح: رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أبي أيوب كما في صحيح الجامع رقم: ٤١٥٢.

بين دنيا وآخرة!

أخرج الله لك من آثار رحمته في دنياك، فأنعم عليك بثمارها وأشجارها ولذائذها وأنهارها، وكأن نفحة هبَّت عليك من عبير الجنة، فلما شممتها ذكرت نعيمها المقيم وسرورها العظيم، فشمَّرْتَ إليها في شوق.

ثم هتفت كما كان نبيك يهتف إذا رأى شيئًا فأعجبه:

«لبيك إن العيشَ عيشُ الآخرة».

ثم انطلقت نحوها في ضوء ما رأيت بكل ما تملك من عزم وتصميم وجِدّ وتشمير، فالنعيم ذكَّرك بالنعيم، وبعض الشيء حفَّزك إلى كماله، وحتى إذا رأيت من الدنيا ما يُعجِبك ولا سبيل لك إليه صدحت في يقين:

الموعد الجنة!

وإذا نالك بعض نعيمها لـم تأذن بهذا البعض أن يتسلل من يدك إلى قلبك هاتفا في بصيرة:

لكن نعيم الجنة ألذَّ!

وما الدنيا غير معبر ينهار سريعًا ما بين عشية وضُحاها، لتكون زادًا وعبرة ودليلاً على الدار الأخرى، فالمؤمن يهزه نعيم اليوم إلى ما ينتظره في الغد، ونفسه تواقة، إذا ذاقت شيئا من النعيم الناقص الزائل طمعت في النعيم الكامل فى جوار رب كريم.

ومن هؤلاء الأغنياء..

أغنياء القلب..

صحابي جليل غير مشتهر هو..



عمرو بن تغلب!

الذي قال له النبي ﷺ:

«إنِّي لأعْطي الرجُل وأدعُ الرجل، والذي أدعُ أحبُّ إليَّ من الذي أعطي، ولكن أُعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكِلُ أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، منهم: عمرو بن تغْلب».

فقال **عَمْرُو**: ما أُحِبُّ أنَّ لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرَ النَّعَم.

فقد وكل رسول الله ﷺ عمرو إلى ما في قلبه من الغنى بالله حين تألف قلب غيره بالغنى بالدنيا، وشتان ما بين البضاعتين، وهنا علم **عمرو** أن عطاء الآخرة خير وأبقى، وأن تَرِكة الإيمان أفضل من كل عروض الدنيا، وقد صدقت فراسة النبي فيه لذا اغتبط من جزع، وكانت كلمة واحدة من رسول الله كفيلة أن تُرضِيَه، وشعر أنها خير له من الدنيا وما فيها.

بركة المال

قال أبو حامد الغزالي:

«الدرهم الواحد قد يُبارَك فيه حتى يكون سببا لسعادة الإنسان في الدنيا والدين، والآلاف المؤلفة قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سببًا لهلاك مالكها بحيث يتمنى الإفلاس منها، ويراه أصلح له في بعض أحواله!»[1].

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٧٦



روى **أبو داود** في سننه[1] أن **أسماء بنت أبي بكر** سألت رسول الله ﷺ عن صدقةِ من يشتكي ضيق اليد وقلة المال، فقالت: يا رسول الله! ما لي شيء إلا ما أدخل عليَّ **الزبير** بيته، أفأُعطي منه؟ فقال:

«أعطي ولا تُوكِي، فيوكى عليكِ».

والمعنى:

«لا تَدَّخِري وتَشُدِّي ما عندك، وتمنعي ما في يدك، فتنقطع مادة الرزق عنك، و«توكي» من الوكاء وهو الخيط الذي تُشدُّ به رأس القربة، وأوْكى فمه: سدَّه، وفلانٌ يوكي فلانًا: يأمره أن يسُدَّ فاه ويسكت»[2].

وفي رواية:

«لا تُحصي فيُحْصي الله عليكِ».

وهي وصية تربوية نفيسة، وموعظة عميقة بليغة لا ينطق بها إلا من علم خبايا النفس ومسالك الشيطان إليها، فهو يقول لها: لا تعُدّي ما تنفقين، فإن العدَّ سيوقعك في فخٍّ خفي ينصبه لك الشيطان، وهو أن «تستكثري» ما تنفقين، ويوشك إن استكثرتِ ما تنفقين أن «يقِلَّ» عطاؤك، إلى أن يأتي عليك يومٌ تمنعين فيه العطاء، وإذا منعتِ عطاءك منع الله عطاءه، فإن الجزاء من جنس العمل.

وحساب العبد غير حساب الملك، وميزان الخلق غير ميزان الخالق، وكأن **أسماء** رضي الله عنها رأت جراب النفقة يؤخذ منه للتصدق كل يوم دون أن ينفد، فتعجَّبت لذلك غاية العجب، وبدا لها أن تعُدَّه لتعرف ما بقي منه، وكذا الناس يفعلون، فإذا بصوت النبي ﷺ يعلن أن هذا العدَّ يضيِّع البركة قائلا لها ولمن بعدها:

«لا تُوكِي فيوكى عليكِ».

---

(١) صحيح أبي داود رقم ١٤٩٠

(٢) لسان العرب ١٥/ ٤٠٦ بتصرف يسير.

بركة دعاء نبوي!

وبركة المال الذي يُنفق منه فاضت من دعوة النبي ﷺ لكل منفقٍ مالَه في سبيل الله، فقد كان النبي ﷺ يدعو لمن يدفع الزكاة والصدقات، واسمع قول **عبد الله بن أبي أوفى** رضي الله عنه، وكان من أصحاب الشجرة:

كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: **«اللهم صلِّ عليهم»**، فأتاه أبي بصدقته، فقال:

«اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»[(١)].

وهو دعاء لهم بالرحمة، فهنيئًا لهم دعوة نبيهم، وما أسعدهم برحمة ربهم، وهو أمر عجيب حقًا؛ فرجلٌ واحد وهو «أبو أوفى» يتقدم بصدقته فيُرحَم بسببه القوم أجمعون!

وهي لمحة من ملامح الكرم الإلهي والجود النبوي، فصدقتك تغمر من حولك، وبركتها تفيض على أولادك ورَحِمك، ويا له من شرف عرفه أصحاب الجنة فالتزموه، وعمدوا إلى ما يملكون فأنفقوه.

وقد دعا ﷺ كذلك بالبركة لمن قدَّم ناقة حسناء بعد أن قدَّم ناقة هزيلة فقال:

«اللهم بارِك فيه وفي إبله»[(٢)].

---

(١) صحيح: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة «٣/ ٢٨٦». وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقته «٢/ ٧٥٦-٧٥٧». **الفائدة التاسعة عشرة:** ولأنهم يعاملون الله وحده، ولا يرجون الأجر إلا منه، فقد أسقطوا رؤية الخلق من قلوبهم حيث امتلأت بالشوق إلى رضوان الله والتحرق على مثوبته، فقد حُكِيَ عن زوجة **طلحة بن عبد الرحمن بن عوف**، وكان أجْود قريش في زمانه: ما رأيتُ قومًا أَلْأَمْ من إخوانك. قال: مَهْ.. ولم ذلك؟! قالت: أراهم إذا أيسرتَ لزِموك، وإذا أعْسَرْتَ تركوك. قال: هذا والله من كرمهم! يأتوننا في حال القوة بنا عليهم، ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم. أدب الدنيا والدين ١/ ١٨٠.

(٢) صحيح: رواه النسائي عن وائل بن حُجْر كما صحيح النسائي رقم: ٢٤٥٨. **الفائدة العشرون:** أنفق من خير ما تملك ولا تيمَّم الخبيث من مالك تنفقه. عن وائل بن حُجْر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ بعث ساعيًا فأتى رجُلا فآتاه فصيلا «يُقال لولد النَّاقة إذا أكل الشجر وشرب الماء فصيل، وسُمِّي فصيلا لأنه فُصِلَ عن أُمِّه، والفِصال: الفِطامُ» مخلولاً «أي مهزولاً»، فقال النبي ﷺ: **«بَعَثْنا مُصَدِّقَ الله ورسوله، وإنَّ فُلانا أعطاه فصيلاً مخلولاً، اللهم لا تُبارِك فيه ولا في إبله»**، فبلغ ذلك الرجل فجاء بناقة حسنة فقال: أتوب إلى الله عز وجل وإلى نبيه ﷺ، فقال النبي ﷺ: **«اللهم بارك فيه وفي إبله»**.



وظل أثر هذه الدعوة ساريا ليشمل كل من أنفق ماله في سبيل الله لتصيبه دعوة نبيه، وينالك من عبق الأثر النبوي أعظم نصيب، وإن باعدَتْ بينك وبين نبيك مئات السنين والأعوام.

وأين هذه البركة من وعد الشيطان للمنفقين بالفقر، فكيف نختار الواطئ على الشريف؟! والسافل على العالي؟!

لنثق في وعد الشيطان المشؤوم على حساب الوعد الإلهي السخي المضمون!

وكيف يتخلف عبدٌ عن المغفرة والفضل اللذين وعده الله بهما:

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ﴾.

ولذا كان الاختيار عند الموقنين محسوما، والمقارنة لا وجود لها أصلاً، لكن ما المقصود بالمغفرة والفضل هنا؟!

قال **ابن عطية**:

«والمغفرةُ: هي السَّتْر على عبادِهِ في الدنيا والآخرة، والفَضْل: هو الرزق في الدنيا، والتوسعةُ فيه، والنَّعِيمُ في الآخرة، وَبِكُلٍّ قد وعد الله جلَّ وعلا»(١).

وعد خالد!

وهو وعد الله الخالد في كتابه يزجر به كل ممسك ويعظ به كل شحيح:

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

قال **ابن عاشور** في تفسيره:

«وأكّد ذلك الوعد بصيغة الشرط، وبجعل جملة الجواب اسمية، وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾، ففي هذا الوعد ثلاث مؤكِّدات دالة على مزيد

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ١/ ٥٢٥ -الثعالبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

العناية بتحقيقه»[١].

وجاء الحديث القدسي مؤاخيًا لآيات القرآن ليتكررالوعد الإلهي تأكيدًا في صورة مباشرة من الرب سبحانه:

«يا ابن آدم.. أَنفقْ أُنفِقْ عليك»[٢].

وقوله **«أُنفِق عليك»** من باب المشاكلة لأن إنفاق الله تعالى لا يُنقص من خزائنه شيئًا بعكس إنفاق العبد.

وتتوالى تأكيدات النبي ﷺ تترى أو إن شئت قل تطميناته أو بُشرياته:

«ما فتح رجلٌ باب عطية بصدقة أو صلة إلا زاده الله تعالى بها كثرة»[٣].

وهي استجابة مباشرة لدعاء ملائكة كرام يرفعون دعاءهم إلى الملك بإلحاح كل يوم، ولذا كان أقرب إلى الإجابة ببركة قائله واستجماع شروط الإجابة، ولو كنت ملكي الطبع روحاني السمت لسمع قلبك همس الملائكة وهم يدعون بهذا الدعاء:

«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا»[٤].

واسمع كيف أن مَلَكيْن كريمين جعلهما الله على بابين من أبواب الجنة يرُدُّ أحدهما على الآخر، وكأنهما يتبادلان أدوار التشويق والترغيب في الإنفاق والحث على الخير، وذلك ما عرفناه عبر وصف نبوي رائع نقله إلينا في دقة متناهية **أبو هريرة** رضي الله عنه حين قال:

«إنَّ مَلَكًا بباب مِنْ أبواب الجنَّة يقول: من يُقرضِ اليوم يُجْزَ غدًا، ومَلَكٌ بباب آخر يقول: اللهم أعْطِ مُنفقا خَلَفًا، وأَعْطِ مُمسكا تلَفًا»[٥].

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٢/ ٢٢٠.
(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٣١٧.
(٣) صحيح: رواه البيهقي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٦٤٦ والسلسلة الصحيحة رقم: ٢٢٢١.
(٤) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٩٧.
(٥) رواه أحمد والنسائي عن أبي هريرة كما في صحيح ابن حبان رقم: ٣٣٣٣.

لكن هل يستحق كل منفقٍ هذا الدعاء؟!

سواء كانت نفقته فريضة كالزكاة أو نفلا كالصدقة والقرض الحسن؟!

اسمع رأي **القرطبي**:

«النفقة تعمُّ الواجبات والمندوبات، لكنَّ المُمسِك عن المندوبات لا يستحقُّ هذا الدعاء»[1].

وأكَّد الكلام **النووي**:

«الإنفاق الممدوح ما كان في الطاعات: على العيال، والضيفان، والتطوعات»[2].

ولا عجب أن صيغت نفوسهم وتشكَّلت أرواحهم بعد ذلك على حب المال بعد أن تأمَّلت بصائر قلوبهم في روعة الثواب الجزيل!

لكنه ليس حُبَّ المال أَثَرةً وأنانية كما يفعل الجهلاء، وإنما لغاية نبيلة وهدف أسمى، وذلك كما فعل **أبو أحمد المعروف بحسينك النَّيْسابوري** حين ناجي ربَّه واعترف بين يديه -وهو الأعلم به- فقال:

«اللَّهُمَّ إنك تعلم أني لا أدَّخِر ما أدَّخِره، ولا أقتني هذه الضياع إلا للاستغناء عن خلقك، والإحسان إلى أهل السُّنّة والمستورين»[3].

لم سمى الله الإنفاق قرضًا؟!

قال تعالى:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

قال **ابن الجوزي** وقد تأمل في الآية السابقة فزادنا في «زاد المسير» معاني رائعات أتحفنا

(١) دليل الفالحين لابن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي ٣/ ١٢١.
(٢) السابق ٣/ ١٢١.
(٣) تاريخ بغداد ٨/ ٧٤.

بها حين قال:

«فإن قيل: فما وجه تسمية الصدقة قرضًا؟

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن القرض يُبَدَّل بالجزاء.

والثاني: لأنه يتأخر قضاؤه إلى يوم القيامة.

والثالث: لتأكيد استحقاق الثواب به، إذ لا يكون قرضٌ إلا والعِوَض مستحق به»(١).

وغاص في أعماق المعاني أعمق وأعمق غواص إيماني باهر ليستخرج لآلئ المعاني ودُررها، فأخرج لنا **ابن القيم** رائعة من روائعه بأن:

«الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد؛ طوَّعت له نفسه، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض مليء وفيّ محسن، كان أبلغ في طيب فعله وسماحة نفسه، فإن علم أن المستقرض يتَّجر له بما اقترضه، وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده بعطائه أجرا آخر من غير جنس القرض، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل أو الشح أو عدم الثقة بالضمان»(٢).

ولذا لما قيل لمنفق: إنك متلافٌ، قال الجواد: مَنْعُ الجودِ سوءُ ظنٍّ بالمَعْبود!

واسمع قصة **عائشة** رضي الله عنها التي رُوِي أن مسكينًا سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاتها: أعطيه إياه.

فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه!

فقالت: أعطيه إياه!

قالت: ففعلت، قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يُهدي لنا شاة

---

(١) زاد المسير إلى علم التفسير ١/ ٢٢٠ –ط دار الكتاب العربي.
(٢) طريق الهجرتين، لابن القيم ص٥٣٨ -٥٣٩.

وكفَّنَها[١]، فدعتني فقالت:

كُلي من هذا، هذا خيرٌ من قرصك»[٢].

وشرط ذلك أن تُعطي ربك يقينًا لا تجربة، وثِقةً لا ريبة، بعد أن تربيتَ في مدرسة اليقين على يد أساتذة اليقين، ومنهم **حيوة بن شريح** الذي كان يأخذ عطاءه في السنة ستين دينارًا، فلا يطلع إلى منزله حتى يتصدق بها، ثم يجيء إلى منزله فيجدها تحت فراشه! وبلغ ذلك ابن عمٍّ له فتصدق بماله كله، وجاء إلى تحت فراشه فلم يجد شيئًا، فشكا ذلك إلى **حيوة**، فقال:

«إني أعطيتُ ربي بيقين، وأنتَ أعطيتَه تجربة»[٣].

(١) أي غطاها بأقراص وأرغفة. **الفائدة الحادية والعشرون**: ومن بركة إنفاق **عائشة** رضي الله عنها وعظيم أثره ما رواه **المُنكدِر بن عبد الله** عن **عائشة** حين دخل عليها فقال: يا أم المؤمنين.. أصابتني فاقة، فقالت: ما عندي شيء، فلو كان عندي عشرة آلاف لبعثْتُ بها إليك، فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف من عند **خالد بن أُسَيْد**، فأرسلَتْ بها في أثَرِه، فاشترى جارية بألف درهم، فوَلَدَتْ له ثلاثة أولا، فكانوا عُبَّاد المدينة: **محمد، وأبو بكر، وعمر، بنو المنكدر!** سراج الملوك ص ٣٧٧.

(٢) الموطأ، لمالك: ٢/ ٩٩٧.

(٣) السير ٦/ ٤٠٤.

يجعل له مخرجًا[1]

قدِّموا عبادة جليلة ومعروفًا جميلاً يكن لكم ذخرًا وسدًّا منيعًا يدفع عنكم كل ما يؤذيكم، ليس بمثل المعروف تُتقى المكاره.

(١) **الفائدة الثانية والعشرون**: والمخرج في هذه الآية على أقوال ثمانية: الأول: من شُبُهات الدُّنيا والكرب عند الموت وإفزاع يوم القيامة. قاله **قتادة**، والثاني: ينجّيه من كل كرب في الدُّنيا والآخرة. قاله **ابن عباس**، والثالث: مخرجًا من كل شيء ضاق على النَّاس. قاله **ابن خيثم**، والرابع: مخرجًا عما نهاه عنه. قاله **الحسن**، والخامس: مخرجًا من العقوبة. قاله **الحسين بن الفضل**، والسادس: يقنِّعه برزقه. قاله **علي بن صالح**، والسابع: مخرجًا من النار إلى الجنة. قاله **الكلبي**، والثامن: مخرجًا من الباطل إلى الحق، ومن الضيق إلى السعة، قاله **ابن جريج**. طالع الدر المنثور ٦/ ٣١.

والمخرج هو موضع الخروج، وإنما يُطلب الخروج من الضيق والشدة، كما جعل لأصحاب الغار الذي سَدَّ بابه صخرة فتوسلوا بأعمالهم الصالحة، فتوسل أحدهم بِبِرِّه بأبويه، وتوسل أحدهم بأمانته، وتوسل الثالث بعفَّتِه عن الفحشاء، ففَرَّج الله عنهم وفتح لهم الغار بحُسْن حسناتهم وعظيم تضحياتهم، وكأنهم يرسلون إلينا برسالة فحواها:

قدِّموا عبادة جليلة ومعروفًا جميلاً يكن لكم عند الله ذخر وسد منيع يدفع عنكم كل ما يؤذيكم[1].

وكما جعل مخرجًا **لعوف بن مالك الأشجعي** لما أسر المشركون ابنًا له، فذهب يشكو ذلك إلى النبي ﷺ فأوصاه رسول الله ﷺ أن يكثر هو وامرأته من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فقالت له امرأته: نِعْمَ ما أمرك به رسول الله ﷺ. فنفذا الوصية، فغفل العدو عن ابنهما ففر ومعه أربعمائة شاة[2]، وفيه نزل قول الله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[3] [الطلاق: ٢، ٣].

وكما جعل مخرجًا **لأبي مسلم الخولاني** سيد التابعين زاهد العصر حين جاءته امرأته يومًا قائلة: ليس لنا دقيق، فقال: هل عندك شيء؟ قالت: درهم بِعْنَا به غزلاً. قال:أعطيني إياه وهاتي الجراب، فدخل السوق فأتاه سائل وألَحَّ، فأعطاه الدرهم، وملأ الجراب نشارة مع تراب، وأتى وقلبه مرعوب من امرأته، ورجع إليها ففتحت الجراب فإذا هو دقيق!! فعجنت وخبزت، فلما جاء ليلاً وضعت الخبز، فقال: من أين هذا؟! قالت: من الدقيق،

---

(١) **الفائدة الثالثة والعشرون**: ولا يزال الله يعاملنا بفضله لا بعدله، وبما هو له أهل لا بما نحن له أهل، ولذا لما قرئ على رجل من الصالحين: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، فقال: والله إنه ليجعل لنا المخرج وما بلغنا من التقوى ما هو أهله، وإنه ليرزقنا وما اتقيناه كما ينبغي، وإنه ليجعل لنا من أمرنا يسرا وما اتقيناه حق التقوى، وإنا لنرجو الثالثة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ حلية الأولياء ٤/ ٢٤٨.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٧٨، وهذه الآية قال عنها **أبو الدرداء** رضي الله عنه: إن في القرآن آية لو أن جميع الناس أخذوا بها لكفتهم.

(٣) **الفائدة الرابعة والعشرون**: قال **ابن تيمية**: «وقد بيَّن سبحانه في هذه الآية أن المتقي يدفع عنه المضرة، وهو أن يجعل له مخرجا مما ضاق على الناس، ويجلب له المنفعة ويرزقه من حيث لا يحتسب، وكل ما يتغذى به الحي مما تستريح به النفوس، وتحتاج إليه في طيبها وانشراحها فهو من الرزق، والله تعالى يرزق ذلك لمن اتقاه بفعل المأمور، وترك المحظور». الفتاوى ٤/ ٤٤٦.

فأجهش في البكاء[1].

وكما جعل لبُنان الحمَّال مخرجًا، فلما جاء رجل إلى شيخ الإسلام **أبي الحسن بُنَان الحمَّال** وكان له على آخر دين مائة دينار، فطلب الرجل الوثيقة فلم يجدها، فجاء إلى **بنان** ليدعو له، فقال **بنان**: أنا رجل كبرت وأحب الحلوى، فاشترِ من دار فلان رطل حلوى حتى أدعو لك، ففعل الرجل وجاء فقال **بنان**:

افتح ورقة الحلوى، ففتح فإذا هي الوثيقة، فقال **بنان**: خُذْهَا وأطْعِم الحلوى صبيانك!![2].

لا طاعة لمخلوق في معصية

وهذا المخرج يجعله الله لمن آثر مرضاة الله على ما سواه، وقدَّم طاعة الخالق على طاعة المخلوق، فيجعل الله له مخرجا من عقوبات البشر مهما تكن، وذلك بعد أن نجح في هذا الاختبار الصعب والفتنة الشديدة.

وانظر ما قاله **الحكم بن عمرو الغفاري** ناصحًا، فقد كتب زياد بن أبيه إلى **الحكم بن عمرو الغِفاري** -وهو صحابي كان واليًا على خراسان- أن أمير المؤمنين كتب إليه أن يصطفى له الصَّفراء والبيضاء، فلا يقسم بين النَّاس ذهبًا ولا فضَّة، فكتب إليه **الحكم بن عمرو** ينصحه:

«بلغنِي كتابك، وإنِّي وجدتُ كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنَّه والله لو أن السَّماوات والأرض كانتا رتقا على عبده، ثمَّ اتَّقى الله جعل له مخرجا، والسَّلام عليك، ثمَّ قال: أيها النَّاس.. اغدوا على مالكم فقسَمهُ بينهم»[3].

ولهذا كتبت **عائشة** رضي الله عنها إلى مُعاوية رضي الله عنه توصيه بتقوى الله ولو أورثه ذلك غضب

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٣٧١- ط دار الحديث.
(٢) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ١٣/ ٢٧٤- ط دار الكتب العلمية.
(٣) الدر المنثور للسيوطي ٨/ ١٩٩-٢٠٠- ط دار الكتب العلمية.

الناس:

«أوصيك بتقوى الله فَإنَّك إِن اتَّقَيْت الله كفاك النَّاس، وإن اتَّقيْت النَّاس لم يغنوا عنك من الله شيئا»[1].

سلاح الرغيف!

ويظل المعروف سلاحًا يدفع عن صاحبه الأذى والضرر ما دام العبد مواظبًا عليه لم ينقطع عنه أو يفارقه، وقد حدث هذا مع كاتب من الكُتَّاب مجهول الاسم لدينا معروف النسب عند ربه، وذلك عندما استدعى الوزير **علي بن محمد بن الفرات** يومًا بعض الكُتَّاب فقال له: ويحك! إن نيتي فيك سيئة، وإني في كل وقت أريد أن أقبض عليك وأصادرك، فأراك في المنام تمنعني برغيف، وقد رأيتك في المنام من ليال، وإني أريد القبض عليك، فجعلت تمتنع مني، فَأَمَرْتُ جندي أن يقاتلوك، فجعلوا كلما ضربوك بشيء من سهام وغيرها تتَّقي الضَّرب برغيف في يدك، فلا يصِل إليك شيءٌ، فأعلِمْني ما قصَّة هذا الرَّغِيفِ؟!

فقال:

أيُّها الوزيرُ إنَّ أمِّي منذ كُنْتُ صغيرًا كل ليلة تضع تحت وسادتي رغيفًا، فإذا أصبحت تصدَّقَتْ به عنى، فلم يزل كذلك دأبها حتى ماتت، فلما ماتت فعلتُ أنا ذلك مع نفسي، فكل ليلة أضع تحت وسادتي رغيفا ثُمَّ أُصبح فأتصدَّقُ به، فعجِب الوزير من ذلك وقال: والله لا ينالك منى بعد اليوم سوءٌ أبدًا[2].

ولذا قال **عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما جازما وكأنه قرأ كل ما روينا من قصص، ثم خرج علينا بهذه النتيجة الرائعة:

«صاحب المعروف لا يقع، فإن وقع وجد مُتَّكأً»[3].

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٨/ ٢٠٠.
(٢) البداية والنهاية ١١/ ١٥١-١٥٢ - ابن كثير - ط دار الفكر.
(٣) عيون الأخبار الجامع ٣/ ١٩٦.

وهو ما أقسم عليه **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه في حث لطيف وتشويق على فعل المعروف:

«والذي وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلبًا سرورًا إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفًا، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تُطرَد غريبة الإبل»(١).

ولا يحب الله مثل منفعة خلقه والإحسان إليهم، ولذا فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعباده، فإذا اتخذتَ هذا الطريق مسلكًا، وهذا النهج حرفة، وصار صدرك لا ينشرح إلا بالبذل والعطاء، فقد فتَحْتَ على نفسك بوابة الخير الإلهي ينهمر عليك بلا انقطاع، فسبيل جريان الخير منه هو في ابتداء الخير منك كما قال **صالح المرّي**:

«ما بينك وبين أن ترى لله عليك في ما تحب إلا أن تعمل فيما بينك وبين خلقه فيما يحب، فحينئذ لا تفقد بره، ولا تعدم في كلِّ أمرٍ خيرَه»(٢).

وهو ما احتشدت به أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، فمن كسى مؤمنا كساه الله من حلل الجنة، ومن أشبع جائعا أشبعه الله من ثمار الجنة، ومن سقى ظمآنا سقاه الله من شرابها، ومن أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار، ومن يسَّر على مُعسِر يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة أشد من كُرَب يوم القيامة، وهي كلها مكافآت أغرت المقبلين، وأشعلت الشوق في قلوب عشاق الجنة المتلهفين.

أحب الناس وأحب الأعمال!

عن **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

يا رسول الله..

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ١/ ١٢٦.
(٢) حلية الأولياء ٦/ ١٧١.

أي الناس أحب إلى الله؟

وأي الأعمال أحب إلى الله؟

قال:

«أحبُّ الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه دَيْنا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد -يعني مسجد المدينة- **شهرا»**[١].

وإذا كنت فطنًا ذكيًا تبحث عن أفضل الأعمال لتوجِّه فيه جهدك المحدود، فخذ هذه الهدية مني شريطة المواظبة عليها:

«مراعاة مصالح العباد من جملة العبادة، بل هي أفضل العبادات»[٢].

ويدخل في هذا الباب السعي في حاجة الرجل والشفاعة فيه، وانظر كيف ربى النبي ﷺ أصحابه على هذه الخصلة بصورة عملية عجيبة، فعن **معاوية بن أبي سفيان** رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إن الرجل ليسألني الشيء فأمنعه؛ حتى تشفعوا فيه فتؤجروا»[٣].

والشفاعة هي زكاة الجاه كما قال الوزير **الحسن بن سهل**:

فُرِضَتْ عليَّ زكاةُ ما ملكَتْ يدي ... وزكاةُ جاهي أن أُعينَ وأشفعا

وعن أهمية الشفاعة وتفضيل البعض لها على إنفاق المال قال الإمام **الماوردي**:

«الإسعاف بالجاه -يعني الشفاعة- قد يكون من الأعلى قدرًا والأنفذ أمرًا، وهو أرخص المكارم، وألطف الصنائع موقعًا، وربما كان أعظم من المال نفعا، وهو الظل الذي يلجأ إليه المضطرون، والحمى الذي يأوي إليه الخائفون، فلا عذر لمن مُنح جاها أن يبخل به، فيكون

(١) السلسلة الصحيحة رقم: ٩٠٦.

(٢) ميزان العمل ص ٣٨٣ - أبو حامد الغزالي - ط دار المعارف.

(٣) صحيح: رواه النسائي برقم: ٢٥٥٧، وهو في صحيح الجامع برقم: ١٦٢٢.

أسوأ حالا من البخيل بماله»[1].

لكن هذا النفع لا يقتصر على أمور الدنيا فحسب، فإن أمر الدين أهم، فيدخل في المنافع أن تهدي غيرك إلى الخير، وتأخذ بيديه إلى طريق التوبة، وتنتشله من كبوة أو شهوة استزله بها الشيطان، أو تفتح له بوابة أملٍ يوشك أن يؤصد أمام عينيه. قال **المناوي** حين تعرَّض لهذا الحديث وقارن بين منافع الدنيا والدين:

«ومنافع الدين أشرف قدرًا وأبقى نفعًا»[2].

الصدقة بوابة نجاة!

أوصى النبي ﷺ من أراد الشفاء واشتكى شدةَ البلاء فقال:

«داووا مرضاكم بالصدقة»[3].

ولما رأى ﷺ هلع الناس لكسوف الشمس أوصاهم بقوله:

«فإذا رأيتم ذلك، فادعوا الله وكبِّروا وصلوا وتصدَّقوا»[4]»

قال **ابن دقيق العيد** في شرح هذا الحديث:

«وفي الحديث دليل على استحباب الصدقة عند المخاوف لاستدفاع البلاء المحذور»[5].

والأمر كما قال **المناوي**:

«وقد جُرِّب ذلك أي التداوي بالصدقة فوجدوا الأدوية الروحانية تفعل ما لا تفعله

(١) أدب الدنيا والدين ١/ ٣٣٣، ٣٣٤. **الفائدة الخامسة والعشرون**: قال **النووي** بعد ذكر حديث الشفاعة: «فيه استحباب الشفاعة لأصحاب الحوائج المباحة، سواء كانت الشفاعة إلى سلطان ووال ونحوهما أم إلى واحد من النـــاس، وسواء كانت الشفاعة إلى سلطان في كف ظلم، أو إسقاط تعزير، أو في تخليص عطاء لمحتاج، أو نحو ذلك». شرح النووي ١٦/ ١٧٧.

(٢) فيض القدير ٣/ ٤٨١.

(٣) حسن: رواه أبو الشيخ في الثواب عن أبي أمامة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم: ٣٣٥٨.

(٤) صحيح: رواه الشيخان وأبو داود والنسائي عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ١٦٤٢.

(٥) أحكام الإحكام ١/ ٣٥٣ - ابن دقيق العيد- ط مكتبة السنة المحمدية.

الأدوية الحسية، ولا ينكر ذلك إلا من كشف حجابه»[١].

وليس هذا فحسب؛ بل رأى بعض السلف أن الصدقة تدفع عن صاحبها المنايا والبلايا ولو كان ظالمًا.

قال **إبراهيم النخعي**:

«كانوا يرون أن الصدقة تَدْفَع عن الرجل الظلوم»[٢].

وجماع القول في حديث نبينا ﷺ:

«تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[٣].

وهذه الصدقة لا سقف لها شريطة استحضار النية الصالحة! فإن قلَّ مالك وضعفت مواردك، فإن لك أن تتسلى ببشارة النبي ﷺ وتوسعته لمعنى الصدقة في قوله:

«ما أطعمتَ زوجتك فهو لك صـــدقة،
وما أطعمت ولــدك فهو لك صـــدقة،
وما أطعمت خـــادمك فهو لك صدقة،
وما أطعمت نفسك فهو لك صدقة»[٤].

(١) فيض القدير للمناوي: ٣/ ٥١٥.
(٢) شعب الإيمان للبيهقي: ٣/ ٢٨٣ رقم: ٣٥٥٩.
(٣) صحيح: رواه أحمد عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٢٩٦١. **الفائدة السادسة والعشرون**: قال **ابن رجب**: «المعنى أنَّ العبدَ إذا اتقى الله وحفظ حدودَه وراعى حقوقه في حال رخائه وصحته، فقد تعرَّف بذلك إلى الله، وكان بينه وبينه معرفة، فعرفه ربُّه في الشدَّة، وعرف له عملَه في الرخاء، فنجَّاه من الشدائد بتلك المعرفة». نور الاقتباس ص ٤٣.
(٤) صحيح: رواه الطبراني وأحمد عن المقدام بن معد يكرب كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٣٥ والسلسلة الصحيحة رقم: ٤٥٢.

رفع العذاب

من حُسْن الحسنة أنها تمنع نزول العذاب بالأمة، وتحميها من أن تهلك نفسها بنفسها، وتُفني حياتها بيدها، وكم من هجمة عذاب كادت تحل بنا لولا وجود نسبة معقولة من الصالحين تمنع تكاثر الخبث..

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾

[البقرة: ٢٤٩].

لما سُئِلَ النبي ﷺ: أنَهْلك وفينا الصالحون؟! قال:

«نعم إذا كثر الخبث»[1].

وأكثر المفسرين على أن المراد بدفع الناس بعضهم ببعض أن يدفع الله بمن يصلي عمن لا يصلي، وبمن يتقي عمن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم[2].

وقد منع الله نزول العذاب بالكافرين في صلح الحديبية؛ وذلك لوجود قلة مؤمنة يستخفون بينهم[3]، فدفع الله عن الكافرين بالمؤمنين، ونزل قول الله عز وجل: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] أي لو تميَّز الذين في مشركي مكة من المؤمنين والمؤمنات الذين لم تعلموهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم لقتلنا من بقي فيها بالسيف، أو لأهلكناهم ببعض عذابنا العاجل.

وهذا معني قول **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه الذي أراد أن يُفْهِمَه لجموع التابعين الذين ما رأوا رسول الله ﷺ وما سمعوا حديثه، فقال مخاطبًا إياهم:

«توشك القرى تخرب وهي عامرة».

فقيل: كيف تخرب وهي عامرة؟! قال:

«إذا علا فُجَّارُها أبرارها»[4].

وهو الدرس الذي تعلمه **الفاروق** من حبيبه وقدوته ﷺ الذي أرسى سنة ربانية ماضية حين قال:

«ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي؛ هم أكثر وأعز ممن يعمل بها، ثم لا يُغيِّرونه؛ إلا يوشك

---

(١) صحيح: رواه الشيخان والنسائي وابن ماجة عن زينب بنت جحش كما فى ص ج ص رقم «٧١٧٦».

(٢) تفسير الإمام ابن عرفة ٢/ ٧١١،٧١٢- محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي- مركز البحوث بالكلية الزيتونية.

(٣) جاء في التفسير أنهم سبعة رجال سُمِّيَ منهم الوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وأبوجندل بن سهيل، وأبو بصيرٍ القُرَشِي، ومن النساء عُدَّتْ أمُّ الفضل زوج العباس بن عبد المطلب، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. تفسير التحرير والتنوير ٢٦/ ١٩٠.

(٤) الجواب الكافي ٥٣.

أن يعمهم الله بعقاب»[١].

وكلما زادت الحسنات رُفِعَت المهلكات، وكلما نضبت كان العذاب وشيكًا.

وقد يكونون قلة لكنه قلة فاعلة مؤثرة، ولهذا رآهم **عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود** أبطالاً يدفعون البلايا عن الأمة ولو كانوا أفرادًا معدودين:

«ذاكر الله في غفلة الناس كمثل الفئة المنهزمة يحميها الرجل، لولا ذلك الرجل هُزِمت الفئة، ولولا من يذكر الله في غفلة الناس هلك الناس»[٢].

ولذا رأى العقلاء في رحيل الصالحين خطورة على أهل الأرض جميعًا، ومن هؤلاء العقلاء الوزير الصالح **رجاء بن حيوة** الذي قال:

أتانا نعي **ابن عُمر** ونحن في مجلس **ابن محيريز**. فقال ابن محيريز:

«والله إن كنت لأَعُدُّ بقاء ابن عمر أمانا لأهل الأرض»[٣].

ثم مات **عبد الله بن محيريز** نزيل بيت المقدس وفخر عُبّاده، فماذا قال **رجاء بن حيوة** عن موته؟! قال:

«وأنا والله إن كنت لأعد بقاء **ابن محيريز** أمانًا لأهل الأرض»[٤].

أيها المسيئون..

قدِّموا الشكر للمحسنين، فهو واجب في رقابكم..

لولاهم لهلكتم، وبسببهم حُفِظْتُم، ولو ماتوا لشقيتم وأُخِذْتُم.

---

(١) صحيح: رواه أبوداود وابن ماجة وابن حبان كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٣٥٣. **الفائدة السابعة والعشرون:** قال **ابن العربي**: «وهذا من الفقه العظيم، وهو أن الذنوب منها ما يعجَّل عقوبته، ومنها ما يمهل بها إلى الآخرة، والسكوت عن المنكر تتعجل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات، وركوب الذل من الظلمة للخلق».

(٢) صفة الصفوة: ٢/ ٥٧.

(٣) تاريخ بغداد ١/ ١٨٤ - ط دار الكتب العلمية.

(٤) مختصر تاريخ دمشق ١٤/ ٣٥ - ط دار الفكر.



سر الحماية وأصل الوقاية!

لكنه ليس أي حضور للصالحين، بل الحضور المؤثر الفعال، بالإصلاح لا مجرد الصلاح، وتغيير المحيط بدل التعايش معه، وهو ما يبرز قيمة اللسان الناطق، الذي جعله الله حدا فاصلا بين النجاة والهلاك، فقال سبحانه:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾.

والمعنى: لو كانوا مصلحين لما نزل بهم العذاب، لكنهم لم يُصلِحوا فحلَّ بهم، والإصلاح هنا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذا قال **عمر بن عبد العزيز**:

«إن الله -تبارك وتعالى- لا يعذِّب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عُمِل المنكر جهارا استحقوا العقوبة كلهم»[1].

وهذا يدل على أن الله قد يعذِّب العامة بذنوب الخاصة، وأننا نستحق العقوبة إذا تخارست الألسنة عن فريضة الأمر والنهي، وإذا لم يتغير المنكر وتصاعدت وتيرته مع وجود الآمر الناهي، وجب على المصلح هجر تلك البلدة إلى غيرها لأن المؤمن تُزكِم أنفسه رائحة المنكر، فلا يطيق إلا أن يُزيله أو يزول هو عنه، وتظل حرقة قلبه تدفعه إلى ملاحقة الفساد ومحاصرة المنكر إذا رآه بارزا منتشيا، ولا ينام إلا على شوك القتاد وجمر العذاب حتى ينتصر عليه وينجح في تغييره.

وهذا هو العالِم الحقيقي عند الصحابي الجليل **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنهما، وهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولذا استحق أن يكون العالِم بحق، وغيابه هو الهلاك بعينه، وهي النبوءة التي تنبَّأ بها **ابن مسعود** فقال:

«لا يأتي عليكم يوم إلا وهو أقلُّ عِلْمًا من اليوم الَّذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى النَّاس، فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهوْنَ عن المنكر، فعند ذلك يهلكون»[2].

---

(١) موطأ الإمام مالك ٢/ ١٧١.
(٢) فتح الباري ١٣/ ٢١.

قصة إسلام عجيبة!

ولأنه قد تهلك جماعة بفساد بعض أفرادها، وتُعاقب بعصيانها، فقد دخل **عكرمة بن أبي جهل** في الإسلام، واستنقذه تدبر هذا المعنى من الكفر، واسمع القصة يرويها لك الإمام **الطبري**:

«فكان **عكرمة** يحدِّث أن الذي ردَّه إلى الإسلام بعد خروجه إلى اليمن أنه كان يقول:

أردت ركوب البحر لألحق بالحبشة، فلما أتيت السفينة لأركبها قال صاحبها:

يا عبد الله، لا تركب سفينتي حتى توحِّد الله، وتخلع ما دونه من الأنداد، فإني أخشى إن لم تفعل أن نهلك فيها، فقلت: وما يركبه أحد حتى يوحِّد الله ويخلع ما دونه! قال: نعم، لا يركبه أحد إلا أخلص، فقلت: ففيم أفارق محمدًا! فهذا الذي جاءنا به، فوالله إن إلهنا في البحر لإلهنا في البر، فعرفت الإسلام عند ذلك، ودخل في قلبي»[(١)].

فانظر –حفظك الله– كيف كان صاحب السفينة حريصا على عدم اصطحاب فرد واحد على السفينة خشية غرق الجميع، وهذا لأنه فهم ضرر القلة على الكثرة.

يزيلونه أو يزولون عنه!

ومن صفات هؤلاء المصلحين أنهم ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾.

قال **الحافظ ابن كثير**:

«والأظهر من السياق أن المراد بـ ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي لا يحضرونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنَّسوا منه بشيء، ولهذا قال مروا كراما»[(٢)].

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٩، ٦٠ – دار التراث – بيروت.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١١٨ – ط دار الكتب العلمية – بيروت.

والزور على أقوال عدَّة تشترك جميعها في أنه منكر تجب محاربته..

«فالشِّرْكُ قاله **الضَّحَّاك وابن زيد**..

والغناء قاله **مجاهد**..

والكذب قاله **ابن جُرَيْج**..

وعن **قتادة**: مجالس الباطل..

وعن **ابن الحنفيَّة**: اللَّهو والغناء..

وعن **مجاهد**: أعياد المشركين»[١].

وعدم شهود الزور معناه الهروب من مواطن لو شهدها المسلم لشارك في الوزر والإثم ولو لم يقع فيه، وقد أشار النبي ﷺ إلى بعضها، ومنها أكل الربا، فقد «**لعن رسول ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه**»[٢].

ومنها مثلاً موائد شرب الخمر لقول النبي ﷺ:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر»[٣].

ولهذا حرص الصالحون على الفرار من أماكن المنكرات خوفًا من الخسف الحقيقي أو الخسف الإيماني! قال الوزير **عونُ الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة**:

«كان بيني وبين بعض مشايخ القرى معاملة مضيتُ من أجلها من الدور (بلدة الوزير) إلى قريته فلم أجِدْه، فقَعَدتُ لانتظارهم حتى هجم الليل، فصَعَدتُ إلى سطحه للنوم، فسمعت قومًا يسفهون بالهجر من الكلام، فسألت عنهم، فأخبرت أنهم يعصِرون بالنهار الخمر ويسفهون في الليل، فقلت: والله لا بِتُّ بها، فقيل: ولم؟ فقلت: أخافُ أن ينزل بهم عذاب وسُخْط فأكون معهم، فإن لم يكن خسفا حقيقيا كان خسفًا معنويًا، مما يدخل على

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٣٢- أبو حيان أثير الدين الأندلسي - دار الفكر.
(٢) صحيح: رواه الترمذي وأحمد عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٦٥٠٦.
(٣) صحيح: رواه الترمذي وأحمد عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٦٥٠٦.

القلب من القساوة والفتور عن ذكر الله تعالى بسماع هذا الكلام، ومضيتُ ذلك الوقت إلى الدور»[١].

فانظر كيف كانت خشيته من مخالطة المفسدين، وحرصه على سلامة قلبه أن تصيبه قساوة العصاة، وقد كافأه الله على حرصه وورعه بأن ملَّكه الخليفة **المقتفي** هذه القرية بأسرها!

من أزاله أعلى ممن زال عنه!

لكن من أزال المنكر أعلى درجة ممن زال عنه، لذا انبرى الإمام **البنا** في إخلاص ممتزج بلطف، وكياسة مترعة بجرعة حب، ليزيل ركامًا ويبعث حطامًا، وانظر تاريخه، وقلِّب صفحات حياته، لتكتشف مواقفه الرائعة في الأمر والنهي، ومنها ما حدث في إحدى ليالي رمضان حين زار منزل قاضي الإسماعيلية الشرعي، واجتمع في هذه الزيارة مأمور المركز والقاضي الأهلي وناظر المدرسة الابتدائية ومفتش المعارف ولفيف من الأدباء والفضلاء والمحامين والأعيان. قال رحمه الله ساردًا قصة من قصص التغيير:

«وطلب فضيلة القاضي الشاي، فقُدِّم إلينا في أكواب من الفضة، وجاء دوري فطلبت كوبا من زجاج فقط، فنظر إلي فضيلته مبتسما، وقال أظنك لا تريد أن تشرب لأن الكوب من فضة، فقلت نعم وبخاصة ونحن في بيت القاضي، فقال إن المسألة خلافية وفيها كلام طويل، ونحن لم نفعل كل شيء حتى نتشدد في مثل هذا المعنى، فقلت: يا مولانا إنها خلافية إلا في الطعام والشراب، فالحديث متفق عليه، والنهي شديد، والنبي ﷺ يقول:

«لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها».

ويقول:

«الذي يشرب في آنية الذهب والفضة فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم».

ولا قياس مع النص ولا مناص من الامتثال، وحبذا لو أمرت بأن نشرب جميعا في أكواب من زجاج.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ١٣٦-١٣٧ - زين الدين الدمشقي الحنبلي - مكتبة العبيكان.



وتدخل بعض الحاضرين في الأمر، وأرادوا أن يقولوا إن الأمر ما دام خلافيًا فلا لزوم للإنكار، وأراد القاضي الأهلي أن يدلي بدلوه في الدلاء، فقال للقاضي الشرعي: يا فضيلة القاضي ما دام هناك نص فالنَّص محترم، ولسنا ملزمين بالبحث عن الحكمة وإيقاف العمل بالنص حتى تظهر، فعلينا الامتثال أولاً، ثم إن عرفنا الحكمة فيها وإلا فذلك قصور منا، والعمل على كل حال واجب، فانتهزتها فرصة وشكرت له، وقلت له مشيرًا إلى إصبعه:

وما دمتَ قد حكمتَ، فاخلع هذا الخاتم، فإنه من ذهب والنص يحرمه، فابتسم وقال: يا أستاذ.. أنا أحكم بقوانين نابليون وفضيلة القاضي يحكم بالكتاب والسنة، وكلٌّ منا ملزم بشريعته، فدعني وتمسك بقاضي الشريعة، فقلت:

إن الأمر إنما جاء للمسلمين عامة، وأنت واحد منهم، فهو يتجه إليك بهذا الاعتبار، فخلع خاتمه، وكانت جلسة ممتعة، وكان لها صداها بعد ذلك في جمهور يرى مثل هذا الموقف العادي أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، ونصيحة في ذات الله».

هما في الوزر سواء!

ولما كان الواقع في الحرام والساكت عنه في الوزر سواء وفي الذنب شركاء، فلذا قال الإمام **القرطبي** عند تفسيره لقول الله عز وجل ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾:

«فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم، يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن يُنكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها؛ فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية»[١].

قال **الطاهر بن عاشور** في توضيح هام للمقارنة بين إثم العاصي وإثم الراضي:

«وهذه المماثلة لهم خارجة مخرج التغليظ والتهديد والتخويف، ولا يصير المؤمن منافقا

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٤١٨. **الفائدة الثامنة والعشرون**: قد روي عن **عمر بن عبد العزيز** أنه أخذ قومًا يشربون الخمر، فقيل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم، فحمل عليه الأدب وقرأ هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾. تفسير القرطبي ٥/ ٤١٨.

بجلوسه إلى المنافقين، وأريد المماثلة في المعصية لا في مقدارها، أي أنكم تصيرون مثلهم في التلبس بالمعاصي»[١].

إن كثيرا من المُصِرّين على الذنب هم مصدر لعنات وهم لا يشعرون، ومنبع أزمات عنها لا يفترون، وبيد كل واحد منهم سكين يطعن به إيمانه وإيمان من جالسه ووافقه، فإذا انبرى عبدٌ رباني فنزع السكين من يديه، وأسدى النصيحة والموعظة إليه، كان بمثابة البطل الذي أنقذ الكل، ولقد فطن لتعدي النفع والضرر فقيه الكوفة **إبراهيم النَّخعي** فقال:

«إن الرجل ليجلس في المجلس فيتكلم بالكلمة، فيرضى الله بها، فتصيبه الرحمة، فتعم من حوله؛ وإن الرجل ليجلس في المجلس فيتكلم بالكلمة، فيسخط الله بها، فيصيبه السُّخط، فيَعُمُّ من حوله»[٢].

وما الذي يمنع العبد الرباني من النطق والكلام؟ وقد ارتدى قلبه درعًا حديديًا أهداه إليه نبع الشجاعة الفياض رسول الله ﷺ حين قال:

«لا يمنعن رجلا هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه أو شهده أو سمعه»[٣].

عظمة الأجر من بركة النهي!

وما أحلى بشارة النبي ﷺ:

«إن من أمتي قوما يُعطون مثلَ أجور أوَّلهم، يُنكِرون المنكر »[٤].

قال **أحمد البنا** في شرح الحديث: «أي يثيبهم الله مع تأخر زمنهم مثل إثابة الأولين من الصدر الأول الذين نصروا الإسلام، وأسسوا قواعده»[٥].

---

(١) التحرير والتنوير ٥/ ٢٣٦.
(٢) زاد المسير في علم التفسير ١/ ٤٨٨ - ط دار الكتاب العربي - بيروت.
(٣) صحيح: رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٦٨.
(٤) صحيح: رواه أحمد كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٧٠٠.
(٥) الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد مع مختصر شرحه لبلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني لأحمد عبد الرحمن البنا الملقب بالساعاتي ١٩/ ١٧٢.

لكن هل يرتقي هذا الرجل لمرتبة الصحابة، وهل ينال مثل أجرهم؟! اسمع رأي الإمام **القرطبي:**

«الإيمان والعمل الصالح في الزمان الفاسد الذي يرفع فيه من أهل العلم والدين، ويكثر فيه الفسق والهرج، ويذل المؤمن ويعز الفاجر ويعود الدين غريبا كما بدأ غريبا، ويكون القائم فيه كالقابض على الجمر، فيستوي حينئذ أول هذه الأمة بآخرها في فضل العمل إلا أهل بدر والحديبية»[١].

أي أن أجر عملك مثل أجر عمل الصحابة إلا أنه يبقى لهم فضل صحبتهم للنبي ﷺ، ولا عمل يوازي هذه الصحبة.

البنا في الأفراح!

وجَّه **علي باشا ماهر** الدعوة للمرشد العام لحضور حفل زفاف ابنه بالإسكندرية، فذهب الأستاذ المرشد إلى الإسكندرية ونزل عند الإخوان، وكلَّف الأستاذ أحد الإخوة الذين رافقوه بالذهاب إلى الحفل وقال له:

إذا لم تجد أي مخالفة شرعية فاتصل بي تليفونيًا حتى أحضر، وإذا وجدت ما يسبِّب أي حرج فقم أنت بالواجب.

وانتظر الأستاذ فترة، ولم يتصل الأخ، فقال الأستاذ للإخوان:

ألا توجد مناسبة عند أحد الإخوة؟

قالوا: بلى.. عند فلان عقد زواج، فذهبوا جميعًا، وكانت مفاجأة سارة، وعمَّت الفرحة والبهجة[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٧٣ - ط دار الكتب المصرية.
(٢) مائة موقف من مواقف المرشدين لجماعة الإخوان المسلمين.

صَلَاحُ الذُّرِّيَّةِ

من بركات صلاحك صلاح ذريتك في الحال والمآل، أما في الحال فهو صلاح دنياهم بما يدفع عنهم الآفات، وصلاح دينهم بما يأخذ بأيديهم إلى الجنات، وأما في المآل فاجتماعك مع ذريتك على سرير واحد من أسرة الجنة.

كان **عمر بن عبد العزيز** يجزم ويقول:

ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عَقِبه وعَقِب عَقِبه[1]. يعني: أولاده وأولاد أولاده.

بل وأبعد من ذلك، كما قال المفسرون في قول الله تعالى:

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال **جعفر بن محمد**:

«كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء»[2].

وبسبب صلاحه حفظ الله الكنز لهذين الغلامين اليتيمين، وصانه لهما حتى يكبرا.

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما:

«حُفِظَا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاحًا»[3].

فصلاح الأبويْن نفع الغلامين، فسخَّر الله لهما مَنْ بنى لهما الجدار، وحافظ لهما على كنزهما حتى كبرا، ولتتم حمايته من هؤلاء اللئام الذين لو سقط هذا الجدار لظهر هذا الكنز، ولاستولوا على هذه الكنز، ونهبوه من هذين الصغيرين.

ولَعَلَّ هذا ما كان يدفع جهبذ العلماء **سعيد بن جبير** إلى أن يطيل في صلاته طمعًا في امتداد نفع صلاته لولده، فعن **هشام بن حسان** قال: قال **سعيد بن جبير**: «إني لأزيد في صلاتي من أجل ابني هذا». قال **هشام**: رجاء أن يُحفظ فيه[4].

يا إخوتاه...

ليس حفظ الأبناء وتأمين مستقبلهم بإيداع الأموال لهم في المصارف ولبنوك، بل بإيداع الطاعات في كفة الحسنات عن طريق إطالة الصلوات ودموع السجدات، وتوفير الأمان

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٤٦٧.
(٢) زاد المسير إلى علم التفسير ٣/ ١٠٤- ط دار الكتاب العربي.
(٣) زاد المسير إلى علم التفسير ٣/ ١٠٤- ط دار الكتاب العربي.
(٤) حلية الأولياء ٤/ ٢٧٩- ط دار الكتاب العربي.

بصدقة الخفاء وصلة الأرحام وحسن الجوار وتلاوة القرآن.. وغير ذلك من الطاعات.

وعلى النقيض من ذلك، فإن تقصيرك في طاعة ربك، وانتهاك محارمه سيتعدى ضرره نفسك إلى ذريتك، مما يستلزم منك وقفة محاسبة صارمة وتفتيشا عُمَريا دقيقا، على أن تُتبع ذلك بتوبة صادقة على فرط منك، وقد سبق وأن لفت نظرك إلى هذا **الحسن البصري** حين قال:

«إذا رأيتَ في ولدك ما تكره، فاستعتِب ربَّك، وتُب إليه، فإنما ذلك شيء أُرِدتَ به أنت»[١].

إنه ينبِّهنا إلى إشارة إلهية وصلت إليك على يد ولدك لعلك لم تنتبه، ويكشف لك عن دورك غير المرئي وأثر عملك الخفي على ذريتك من بعدك، ليدفعك دفعا إلى طاعة ربك، ويرغِّبك في لزوم مرضاته، لتجني الثمرة في أولادك سواء في حياتك بصلاح دنياهم ودينهم، أو بعد مماتك بنيلك مثل ثواب أعمالهم الصالحة.

وهو في نفس الوقت يرشد إلى نية جديدة مع كل استغفار وتوبة، وهو أن تصلُحَ ذريتُك، فتضاعِف عمرك ضعفين، وتعيش -بصلاح ولدك- حياتين، وهي نية تغيب عن كثير من المستغفرين، ولا يحظى بها سوى كل ذي حظ عظيم.

وكلما كانت الطاعات أكثر كان الصلاح أعمَّ وأشمل ليغطي دائرة الأبناء ويتعداها إلى دائرة الجيران.

شهد بهذا ورآه بعيني رأسه **محمد بن المنكدر** فانطلق يقول:

«إن الله تعالى يحفظ المؤمن في ولده وولدَ ولده، ويحفظه في دُويرته وفي دُويراتٍ حوله، فما يزالون في حفظ وعافية ما كان بين أظهرهم»[٢].

ولأنهم وثقوا في حفظ الله ورعايته، فقد استراحت قلوبهم مما شقي به غيرهم من همٍّ وغمٍّ وقلق واضطراب، ومن هؤلاء الموقنين **محمد بن كعب القرظي**:

(١) الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٩ – ط دار الصديق – بيروت.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٣٧٩- ط دار الحديث.



كان له أملاك بالمدينة، وحصَّل مالاً مرة، فقيل له: ادَّخر لولدك. قال:

«لا، ولكن أدخره لنفسي عند ربي، وأدَّخر ربي لولدي»[١].

ولذلك حفظ الله أبناءهم في حياتهم وبعد موت آبائهم، ومما ذُكِر في امتداد صلاح الآباء وأثره على الأبناء ما ذكره **أبو حامد الغزالي**:

«رُوي أن **الشافعي** رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال: مروا فلانًا يُغسِّلني، فلما تُوفي بلغه خبر وفاته، فحضر وقال: ائتوني بتذكرته، فأُتي بها فنظر فيها، فإذا على **الشافعي** سبعون ألف درهم دين، فكتبها على نفسه وقضاها عنه، وقال هذا غسلي إياه -أي أراد به هذا-».

قال **أبو سعيد الواعظ**:

لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم، فرأيت فيهم سيما الخير وآثار الفضل، فقلت بلغ أثره في الخير إليهم وظهرت بركته فيهم مستدلاً بقوله تعالى:

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[٢].

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٨- ط الرسالة.
(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٥١.

بَرَكَةُ الأَوْقَاتِ

ثمرة أيام عندهم هي محصلة أعوام من غيرهم.. الواجبات عندهم أكثر من الأوقات، لذا اقتطعوا من وقت راحتهم لدعوتهم، واغتنموا ساعات ليلهم ليتزوَّدوا لنهارهم، فبلغوا ما لم يبلغ الغافلون، وتحسَّر عليه الراقدون.

اقرأ هذه النماذج بعناية:

الإمام فخر الدين الرازي:

[توفي:٦٠٦هـ] عن ثلاث وستين سنة، وتراث من التأليف نحو ٢٠٠ كتاب ما بين كتاب في ثلاثين مجلدًا كالتفسير المشهور له، ورسالة له في صفحات.

الإمام النووي:

[توفي: ٦٧٦هـ] عن خمس وأربعين سنة، وكان كل يوم يقرأ اثني عشر درسًا على مشايخه، شرحًا وتصحيحًا، يأكل في اليوم أكلة ويشرب شربة واحدة عند السَحَر، ولذلك ترك من المؤلفات ما قسموه على أيام حياته، فكان لكل يوم أربعة كراريس!!.

الإمام ابن تيمية:

[توفي: ٧٢٨هـ] عن سبع وستين سنة، وجاء في ترجمته عند ابن شاكر الكتبي: إن تصانيفه تبلغ ٣٠٠ مجلدًا، والإمام الذهبي يقول: إن تصانيفه تبلغ إلى ٥٠٠ مجلدًا، والصحيح في عدد تصانيفه ما قاله الحافظ ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة: وجاوزت حد الكثرة فلا يمكن لأحد حصرها.

قال عنه تلميذه **ابن القيم**: وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سُنَنِه وكلامه وإقدامه وكتابته أمرًا عجيبًا، فكان يكتب في اليوم من ا لتصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر!!

الحافظ ابن الدنيا:

[توفي: ٢٨١هـ] عن ثلاث وسبعين سنة، ألَّف ألْف تأليف، وابن عساكر ألَّف تاريخه في ٨٠ مجلدًا، وأبو محمد علي بن حزم ٤٠٠ مجلدًا تشتمل على قريب من ٨٠ ألف ورقة، وابن شاهين صَنَّف ثلاثمائة وثلاثين مصنفًا منها التفسير في ألف جزء، والمسند في ألف وخمسمائة جزء.

وليست القرون الأولى وحدها تحتكر الأفذاذ، بل وفي عصرنا الحاضر نوابغ وورثة

عزائم ومقتفو أثر.. ومنهم تلامذة **البنا** الذين قال عن أحدهم:

«قليل من الناس من يعرف أن الداعية من دعاة الإخوان قد يخرج من عمله المصلحي في عصر الخميس، فإذا هو في العشاء بالمنيا يحاضر الناس، وإذا هو في صلاة الجمعة يخطب بمنفلوط، فإذا هو في العصر يحاضر بأسيوط، وبعد العشاء يحاضر بسوهاج، ثم يعود أدراجه هادئ النفس مطمئن القلب يحمد الله على ما وفقه إليه ولا يشعر به إلا الذين استمعوه».

هل انتهيت من القراءة يا أخي؟!

هل اعترتك حالة من الدهشة؟!

أتريد أن تصل إلى ما وصلوا إليه أو نصفه أو عشره؟!

هل تشكو بأن الأوقات تتسرب من بين يديك، وبأن مُحَصِّلة يومك مثل أَمْسِكَ مثل غَدِك... صِفْر.. وبأن الشهر عندك يمر كاليوم، واليوم يمر كالساعة[1].. إذا كنت كذلك فجَرِّب هذا الأدوية:

الدواء الأول: النية الدائمة!

لا تعمل عملاً دون أن تصاحبك فيه نية صالحة، وما أبلغ قول **مالك بن دينار** يعلي به قيمة القلب ويحفظ له قدره:

«نية المؤمن أبلغ من عمله»[2].

وما هي أكثر الأعمال التي تستهلك وقتك أثناء اليوم؟

أهناك أكثر من النوم والعمل والطعام؟

فأما النوم، فوصيتي لك فيه: لا تنَمْ إلا بِنيَّة التَّقوِّى على فجر أو قيام، كما فعل **معاذ بن**

---

(١) **الفائدة التاسعة والعشرون**: من أظرف ما قيل في تبديد الأوقات وتضييع «الساعات» قول الشاعر **محمود غُنيم** في ساعة فُقِدَتْ منه، فاستخدم التَّورية قائلاً:

يا ساعةً ما أنتِ أوَّلُ ساعةٍ ... ضيَّعْتُها في أُولَياتِ حياتي
ما دُمْتُ ضَيَّعْتُ السِّنين فما أنا ... بمُعَاتِبٍ نفسي على السَّاعاتِ

(٢) صفة الصفوة ١/ ٢٦١.



جبل رضي الله عنه الذي كان ينام أول الليل، ثم يقوم للصلاة قائلاً:

«فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»(١).

وأما العمل، فلا تذهب إلى عملك إلا بِنيَّة يتشربها قلبك:

«إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف»(٢).

وأما الطعام فلا تأكل إلا بِنِيَّة الاستعانة بهذا الطعام على الطاعة كما كان عبد الرحمن بن الأسود يفعل، فكان لا يأكل الخبز إلا بنية، فقيل لصاحبه: وأي شيء النية في أكل الخبز؟! قال:

«كان يأكل فإذا ثقل عن الصلاة خفَّف ليَخِفَّ بها (ينشط وتسهل عليه ويلتذ بها)، فإذا خفَّف ضعف، فأكل ليقوى، فكان أكله لها، وتركه لها»(٣).

وأما التوسعة على الأهل، فاسترجع معي هذا الحديث:

«دينار أنفقتَه في سبيل الله، ودينار أنفقتَه في رقبة، ودينار تصدَّقْتَ به على مسكين، ودينار أنفقتَه على أهلك، أعظمُها أجرا الذي أنفقتَه على أهلك»(٤).

وحتى في لقاء الرجل أهله وقضاء وطره، فجدِّد له نية عُمَرية سامية بعد أن علَّمكها **الفاروق** رضي الله عنه في قوله:

«إني لأُكرِه نفسي على الجماع رجاء أن يُخرِج الله نَسْمة تُسبِّحه وتذكُره»(٥).

هذا كله مع التزامك بالفرائض وعَضِّك عليها بالنواجذ، وعندها سترى الفرق شاسعًا إن شاء الله.

---

(١) أخرجه البخاري «٤٠٨٦».

(٢) ضعيف: رواه الحكيم والطبراني والبيهقي عن ابن عمر كما في ضعيف الجامع رقم: ١٧٠٤.

(٣) بستان العارفين للنووي ص ٣٢ – ط دار الريان للتراث.

(٤) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٣٩٨. وإنما كان الإنفاق على الأهل أفضل لأنه فرض، والفرض أفضل من النفل، أو لأنه صدقة وصلة.

(٥) الدراري في ذكر الذراري ص ١٥ – دار السلام، دار الهداية.

الدواء الثاني: اثنان في واحد:

وبين يديك أربع قمم تنتصب منارات، تغريك بالاقتداء وتجذبك إلى العلياء، وتعلِّمك كيف تجمع في وقت واحد بين عملين، وتسير في اتجاهين، وتبني بناءين، ليؤتيك الله أجرك مرتين!

أبو بكر بن الخياط النحوي:

كان يدرس جميع أوقاته حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جرف أو خبطته دابة![1].

الفتح بن خاقان:

كان يحمل الكتاب في كُمِّه أو في خُفِّه، فإذا قام من بين يدي المتوكل للبول أو الصلاة، أخرج الكتاب فنظر فيه وهو يمشي حتى يبلغ الموضع الذي يريده، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه، فإذا أراد المتوكل القيام لحاجة، أخرج الكتاب من كُمِّه أو خُفِّه، وقرأه في مجلس المتوكل إلى حين عَوْده[2].

ثعلب أحمد بن يحيى الشيباني:

وكان سبب وفاته أنه خرج من الجامع يوم الجمعة بعد العصر، وكان قد لحقه صمم لا يسمع إلا بعد تعب، وكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق فصدمته فرس فألقته في هوة، فأخرج منها وهو كالمختلط، فحمل إلى منزله على تلك الحال وهو يتأوه من رأسه، فمات ثاني يوم[3].

عبد الملك بن مروان:

يروي عنه ابنه: «كنا نسير مع أبينا في موكبه فيقول لنا: سبِّحوا حتى تأتوا تلك الشجرة، فنُسبِّح حتى نأتي تلك الشجرة، فإذا رفعت لنا شجرة أخرى قال: كبِّروا حتى تأتوا تلك

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء ١/ ٤٥-٤٦.

(٢) قيمة الزمن عند العلماء ص ٣٩.

(٣) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان١/ ١٠٤ - ابن خلكان البرمكي الإربلي -دار صادر - بيروت.

الشجرة، فنكبِّر فكان يصنع ذلك بنا»[١].

وبذا تتعلم من آليات استثمار الوقت أن تنهج هذا السبيل الذي يُبرِز اعتناءك بوقتك، وإدراكك لقيمة الكنز الذي بين يديك، وذلك في ضوء أن الواجبات أكثر من الأوقات، وأن ساعة الرحيل تفجأ.

الدواء الثالث: قلة النوم[٢]:

كان **همام بن الحارث** يدعو: اللهم اشفني من النوم باليسير، وارزقني سهرا في طاعتك، وكان لا ينام إلا هنيهة وهو قاعد[٣].

ولاحظ ما امتلأ به اسمه من همة وعزم، فلله دَرُّه! كم له من اسمه أعظم نصيب، فهمُّه إرضاء ربه، وحرثه الذي شغله هو طاعة مولاه، فليله مع نهاره عمل دائب، وكذلك كان غير واحد من سلفنا الصالح كان لا ينام إلا مغلوبًا!

وهو يعبِّر بهذا عن نفسية هذا الصنف من البشر واهتماماته التي لا تكفيها ساعات النهار إلا أن يصلها بالليل، واسمع تجربة **أبي بكر الصديق** رضي الله عنه التي أقسم عليها:

«والله ما نمت فحلمت، ولا توهَّمتُ فسهوتُ، وإنِّي لعلى السَّبيل ما زِغْتُ»[٤].

قال الأستاذ **الراشد** شارحًا:

«يعني أنه قد شغلته حروب الردة والفتوح وأرهقه إرساء جهاز الدولة، حتى أنه ما كان ليستغرق في نومه ليتاح له أن يحلم، وظل يزاد بعد النبي ﷺ في الصديقية ليهبه الله تعالى

---

(١) الزهد لأحمد ١/ ١٨٦- دار الكتب العلمية.

(٢) **الفائدة الثلاثون**: يختلف قدر النوم من شخص لآخر بحسب أربعة عوامل، **الأول**: **اختلاف طبيعة الأشخاص**: فمن الناس من يقلُّ نومه فيكفيه من النوم خمس ساعات يوميًا، ومنهم من يكفيه ثمانية ساعات، **والثاني**: **اختلاف البيئات**: فالدول ذات المناخ الحار تختلف عن ذوات المناخ البارد، والبلاد المزدحمة غير البلاد الهادئة، **والثالث**: **اختلاف الأعمار**: فكبار السن تقلُّ عدد ساعات نومهم عن الشباب، **والرابع**: **اختلاف المهن**: فصاحب العمل ذو المهام الشاقة يحتاج ساعات نوم أكثر من صاحب المهام الفكرية والأعمال المكتبية. راجع كتاب الترف وأثره في الدعاة والصالحين ص ٨٦-٨٧ - محمد موسى الشريف - طبعة دار الأندلس الجديدة.

(٣) صفة الصفوة ٢/ ٢١ - دار الحديث.

(٤) الخراج لأبي يوسف ١/ ٢١ - المكتبة الأزهرية للتراث.

يقظة أثناء هذا التعب تبعد عنه الوهم والسهو»[1]، فمن بركة بذله وتضحيته بوقته في سبيل الله أن الله عوَّضه يقظة رغم قلة نومه وشُحِّ راحته.

وهـم!

يظن أن مزيدًا من النوم سيوقظه نشيطا، فينام عن صلاة الفجر، وما درى أنه يحكم بذلك على نفسه بالكسل سائر يومه، لأن الله وحده يملك مفاتيح البركة وخزائنها، وفي الحديث المتعلِّق بالنوم عن صلاة الفجر:

«أصبح خبيث النفس كسلان»[2].

يا مقلةً راقدة لم تدر بأختها الساهدة:

هل علمتِ سرَّ السهر وسبب النصب؟!

إن كان لي أن أفشي السر وأكشف الستر لقلت:

قلوب زارتها نسائم الجنة فسلبتها لذيذ النوم، وأهدتها بدلا منه سهرا يورث لذيذ الراحة لا التعب، ومُتَعا لا تُضاهى، وإذا كانت كثرة النوم مفتاح اللوم في ساحة الدنيا ومتعها المحدودة، فكيف بعاقبته في شأن الآخرة الأبدية؟!

وكيف لا تتجافى جنوبنا عن مضاجع الخسران ومهاد الندم!

يا طويل الرقـاد والغفلات	كثرة النوم تورث الحسرات
إن في القبـر إن نزلت إليـه	لرقـادا يطول بعد الممـات

(١) الرقائق ص ٢١ – محمد أحمد الراشد– مؤسسة الرسالة.

(٢) **الفائدة الحادية والثلاثون**: في الصحيح: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هونام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**». قال النووي: وظاهر الحديث أن من لم يجمع بين الأمور الثلاثة وهي الذكر والوضوء والصلاة، فهو داخل فيمن يصبح خبيث النفس كسلان. شرح النووي على صحيح مسلم ٦/ ٦٧.

وِمهـادا مُمَهَّــدا لك فيـه
بذنـوبٍ عملتَ أو حسنـات

بركات من السماء والأرض

هل لنا في قلب مؤمن يعزو بعض أسباب أزماتنا الاقتصادية وانعدام بركة الأرزاق إلى ضعف الصلة بالله، واستجلاب عداوته بموالاة من عاداه، وفي المقابل هل لنا أن نلتمس ضد هذا بحسنات مباركات تفتح خزائن البركات وكنوز الخيرات.

لقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

[الأعراف: ٩٦].

إنه يا سادة.. ليس خبرًا في صحيفة، ولا تحليلاً من سياسي، ولا وعدًا من بشر يُصيب ويخطئ، وإنما وعد الله الذي لا يتخلف، وسنته الماضية التي لا تتبدل، فللبركات صندوق، وللصندوق قفلٌ لا يملك مفاتحه إلا خالقها، واسمع إلى ضمير العظمة في الآية: ﴿لَفَتَحْنَا﴾.. فهو الكريم جل في عُلاه.. القدير الذي لا يُعجِزه شيء.. الحكيم في عطائه ومنعه.. ومعافاته وابتلائه..

وما وقعت لقمة في يد إلا بعد أن أذِن الله لها أن تقع، فما الرزق الذي يصل إلى يديك غير تنفيذ أوامر!

وفي السماء رزقكم وما توعدون

وهو مد لازم.. ترفع بها صوتك لتصب إلى عنان السماء بعيدا عن أسباب الأرض.. فلا تذل نفسك إلا على بابه.. لأن الخلق ومن يسكنون الأرض لا يملكون لك شيئًا.

وبركات السماء: المطر، وبركات الأرض: النبات والثمر، وقال بعضهم: بركات السماء قبول الدعاء، وبركات الأرض: تسهيل الحاجات.

و يشمل هذا كل ألوان الخير، لأن ما يناله الناس من الخيرات الدنيوية لا يعدو أن يكون ناشئا من الأرض، وتلك معظم المنافع، أو من السماء مثل ماء المطر وشعاع الشمس وضوء القمر والنجوم والهواء والرياح الصالحة.

وقد سنَّ الله لنا صلاة الاستسقاء عند انعدام المطر وحلول القحط، لأن الجدب وقلة الرزق يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بكثرة الذنوب، ولا يرتفعان إلا بتوبة نصوح، لذا يستحبُّ الإِكثار في صلاة الاستسقاء من الاستغفار، ولذا لما خرج أمير المؤمنين **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه

ليستسقي؛ لم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأُمطروا فقالوا: ما رأيناك استسقيتَ؟ فقال:

«لقد طلبتُ المطر بمجاديح السماء التي يُستنزل بها المطر»، ثمَّ قرأ قول الله تعالى:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[1].

إن الطاعة مفتاح البركة، وترك الذنوب هو سبب نزول الغيث والخير، والوقوع فيها سبب الحرمان، والدليل على ذلك قول نبينا ﷺ:

«وما منع قوم زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا»[2].

وهو الدرس الذي وعاه جيدًا تلميذٌ نجيب ترعرع في مدرسة النبوة، وهو **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه، فقال وهو يتحدَّث عن سبب من أسباب انقطاع المطر في زمنه:

«إذا بُخِس المكيال حُبِس القطر»[3].

ويا حبذا لو كانت التوبة من رأس الدولة، والإنابة والخضوع من ولي أمر المسلمين، واسمعوا قصة القحط والغيث التي حدثت في عهد..

الأمير الفقير!

أصاب أهل الأندلس قحطٌ، وأراد الناس الاستسقاء، فأرسل أمير المؤمنين بالأندلس **عبد الرحمن الناصر** برسول إلى القاضي المنذر بن سعيد يحرِّكه للخروج لصلاة الاستسقاء، فسأل القاضي: يا ليت شِعْري.. ما الَّذِي يصنعه الأمير؟

فقال: ما رأيته أخشع لله منه فِي يومنا هذا، وإنه منفردٌ بنفسه، لابسٌ أخشن ثيابه، يبكي ويعترف بذنوبه، وهو يقول:

هذه ناصيتي بيدك، أتراك تعذِّب الرَّعيَّة من أجلي وأنت أحكم الحاكمين، لن يفوتك

(١) البداية والنهاية ٧/ ٩٢.
(٢) البداية والنهاية ٧/ ٩٢.
(٣) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب ٢/ ٤٤١ – ط مؤسسة قرطبة.

شيء مني، فتهلَّل وجه القاضي لما بلغه هذا.

وقال: يا غلام.. احمل المِمْطَر معك، فقد إذِن اللهَّ بسُقْيانا.

وفي رواية:

رُحِمْتُم وسُقيتُم والله.. إذا خشع جبار الأرض رحم جبَّار السَّماء، فخرج، وكان كما قال[١].

نوعا البركة

وأما البركة فهي الزيادة، وأن تُعطى الشيءَ من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك، وهي نوعان:

بركة العطاء:

قال **ابن القيم**: «قد ذكر الإمام **أحمد** في مسنده في ضمن حديث قال: وُجِدت في خزائن بعض بني أُمَيَّة حِنْطَة، الحبة بقدر نواة التمر، وهي في صُرَّة مكتوب عليها: «كان هذا ينبت في زمان العدل»»[٢].

ومن أروع أزمنة العدل ما كان في زمان الخليفة الراشد مُجَدِّد الإسلام في القرن الأول الهجري **عمر بن عبد العزيز**.

قال **موسى بن أعين**:

«كنا نرعى الشاء في خلافة **عمر بن عبد العزيز** وكانت الوحوش والذئاب ترعى في مكان واحد، فبتنا ذات ليلة إذ عرض الذئب لشاة فقلنا: ما نرى الرجل الصالح إلا هلك. قال الراوي: فحدَّثني هو وغيره أنهم حسبوا فوجدوه قد هلك في ذلك اليوم»[٣].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٢٤٥. والمِمْطَر ثوب لا ينفذ منه الماء يُلبَس في المطر.
(٢) الداء والدواء ص ٦٥- ط دار المعرفة.
(٣) حلية الأولياء ٥/ ٢٥٥.

والنوع الثاني من البركة هو:

بركة السلب:

حين يسلب الله منك مصارف الإنفاق، فهذا لون خفي من ألوان البركة، وإن كان وارد المال عليك قليلا لكنه يصير كثيرا بقلة المنصرف منه، وهذا من رزق السَّلْب الذي لا يزيد في ما دخل جيبك، لكنه يسلب عنك مصارف الإنفاق، كأن يمنحك العافية، فلا تحتاج أجرة طبيب أو نفقة علاج، وكأن ينقذك من حادث مريع يذهب ببعض ثروتك ويغرِّمك من مالك.

درس لا ينسى

وبركة العطاء والسلب رزقها الله **حكيمَ بن حزام** ببركة دعاء النبي ﷺ له، وقد قصَّ علينا كيف تلقى هذا الدرس في مدرسة النبوة، وتناول فصلا من فصول هذه المدرسة ولمحة من لمحاتها فقال:

سألتُ رسول الله ﷺ فأعطانى، ثم سألْته فأعطانى، ثُمَّ سألتُه فأعطانى، ثم قال:

«يا حكيمُ.. إنَّ هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفسٍ لم يُبَارَك له فيه، كالَّذى يأكل ولا يشبع، اليد العليا خَيْرٌ من اليد السُّفلى»[(١)].

وقد وجَّه النبي ﷺ الخطاب **لحكيم بن حزام** الذي كان ممن يتألف رسول الله قلوبهم بالمال، وشبَّه المال في الحديث بأنه خضِرَة أي جذاب الشكل والمظهر ليخلب الأبصار والأفئدة، وأنه في نفس الوقت حلوة أي في مذاقه ونعيمه، فجمع المال بين جمال الظاهر والباطن ليزداد فتنة وجاذبية.

وتلحظ في البلاغة النبوية أن النبي ﷺ وصف المال -رغم أنه مذكَّر- بصفتين مؤنثتين **«خضِرة حلوة»**، وكأن المراد هنا هو الحديث عن الدنيا، وما المال إلا أعظم ما يطلبه العبد

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن حكيم بن حزام كما في مشكاة المصابيح رقم: ١٨٤٢.

من دنياه، ومعنى الوصية أن من أخذ المال –رغم فتنته وإغرائه– بغير سؤال ولا تطلع بارك الله له فيه، ولهذه البركة صورتان:

الأولى:

أن هذا المال لا يكون فتنة لصاحبه، فلا يحصل بسببه ضرر له في دينه ولا في دنياه، بل يكون عونا له على قضاء حوائجه وصلاح دينه.

الثانية:

أن يكفيك منه القليل، ولا يعود يتطلع قلبك إلى تحصيل المزيد.

وعندها أقسم **حكيم** وقد سطعت أنوار النبوة على ظُلُمات طمعه فبدَّدَته:

يا رسول اللهَّ، والَّذى بعثك بالحقّ، لا أَرْزَأُ أحدًا بعدك شيئًا حتَّى أُفارق الدُّنيا أي لا آخذ من أحد بعدك شيئًا.

وصدق **حكيمٌ** في وعده، ووفّى بعهده رغم أنه كان قد جاوز الستين من عمره(١)، فكان **أبوبكر الصديق** رضي الله عنه يدعوه إلى العطاء، فيأبى أن يقبله، ثم إن **عمر** دعاه ليُعطيَه، فأبى أن يقبل، فقال **عمر**:

إني أُشهِدُكم يا معشر المسلمين على حكيم، أني أعرِض عليه حقه من هذا الفيء، فيأبى أن يأخُذَه.

وكأن **عمر** أراد أن تخلص ذمته، أو أن يُلِحَّ على حكيم حتى يأخذ منه العطاء، فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ، وظل على ذلك حتَّى مات لعشر سنين مضت

---

(١) **الفائدة الثانية والثلاثون:** التغيير في الكِبرَ أصعب وأشق على النفس، وهو علامة على الصدق وقوة العزيمة، ولهذا قيل: ما أشد فطام الكبير، قال الشاعر:

إنَّ الغصون إذا قوَّمتها اعتــدَلَتْ ... ولا يليــنُ إذا قوَّمتَــهُ الخَشَــبُ
قد ينفعُ الأدبُ الأحداث في صِغرٍ ... وليس ينفعُ عنـد الشَّيْبـة الأدَبُ

وقال غيره:

لا تَنْهُ عن أدَب الصغير ... وإن شكى ألــم التَّعب
ودَع الكبيـــر لشـانِهِ ... كَبُرَ الكبيـرُ عن الأدب

من إمارة **مُعاوية**.

وكان من بركة امتثال **حكيم بن حزام** لأمر النبي ﷺ ما رواه الإمام **الزهري** عن ثروة **حكيم** عند موته:

«فمات حين مات وأنه لمن أكثر قُريش مالاً»[1].

وفي الجهة المقابلة..

من أخذ المال بإشراف نفس.. أي بإلحاح النفس وحرصها الشديد وطمع فيه وتطلع إليه، فهذا يكون ماله منزوع البركة، ويتحول صاحبه بالمنظور الإيماني وبتدقيقٍ من خلال العدسة النبوية إلى كائن أشبه بالبهائم! فمهما أكلت لا تشبع، لأنها لا تأكل لإقامة الرمق وحفظ الحياة، بل تأكل شَرَها ونهما واستزادة وسمنا، وصاحبنا سائر على دربها لا يحيد!

تهذيب!

اعتاد أحد إخواني أن ينفق نسبة ثابتة من أي مال يكتسبه وذلك في مصارف الخير، وعقد هذا الاتفاق مع زوجته منذ تزوجا، يقتسمان هذا الجزء من مالهما مهما كانت الظروف وكثرت الأعباء والنفقات، ومرت الأيام، وحدث أن سافر الزوج إلى الخارج في رحلة عمل، واحتاج أن ينفق نفقات كثيرة إعدادًا لهذه السفرة، فراجع نفسه، وزيَّن له الشيطان أن يمسك المال هذه المرة، ولا يخرج النسبة المقررة..

وسافر أخونا.. ودُعِي إلى العشاء، وكانت الدعوة في غابة جليدية في هذه الدولة الأوروبية، ولما فرغ من عشائه، وخرج ليرجع إلى مسكنه فوجئ بأن سيارته قد كُسِر زجاجها، وأن جهاز الحاسوب الخاص به قد سُرِق، وتعجَّب: أي سارق هذا الذي يسرق في مثل هذا الجو القارص! وفي هذه الغابة الهادئة!

---

(١) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري ٩/ ٥٣- ط دار إحياء التراث العربي. وقد مات حكيم بالمدينة سنة ستين في خلافة معاوية بن أبي سفيان وهو ابن مائة وعشرين سنة.

وحزن حزنًا كبيرًا حيث لم يكن مر على شراء هذا الجهاز سوى بضعة أيام، ولما راجع نفسه علم السبب، وأنه لو كان قدَّم ما اعتاد عليه لوقاه الله ما جرى له، وقد كانت هذه النسبة المقررة لا تتجاوز عُشْر ثمن الجهاز المسروق! فأي خسارة دنيوية خسرها بإمساكه؟ وأي خسارة أخروية أفدح، فقرأ الرسالة الربانية في ثنايا هذا الحادث، واستخرج هذه الحكمة من براثن الألم:

لا تمنع عطاء الله فيمنع الله عنك عطاءه.

من ترك شيئًا لله

قال قتادة بن **دعامة السدوسي** التابعي الجليل:

«لا يقْدِرُ رَجلٌ على حَرَامٍ ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله -عز وجل- إلا أبْدَله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خيرٌ له من ذلك»[١].

(١) ذم الهوى ص ٢٤٥.

«ما نقص مال من صدقة».

«وما ازداد عبدٌ بِعَفْوٍ إلا عِزًّا».

«ومَنْ جعل الآخرة هَمَّه أتته الدنيا وهي راغمة».

«ومن كظم غيظًا ناداه الله على رؤوس الخلائق لِيُخَيِّرَه بين الحور العين أيّها يشاء».

«من تواضع لله رَفَعَه».

«من ترك اللباس تواضعا لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيِّره من أي حُلل الإيمان شاء يلبسها».

كل عبارة مما سبق لم تكن سوى حديث صحيح أو حسن عن النبي ﷺ تشير إلى أن مَنْ يؤثر الله على هواه يبدله الله خيرًا، ويجزِه ثوابًا في الحياة قبل الممات، وهو إرساء لقاعدة إيمانية راسخة مفادها:

«من ترك شيئًا لله عز وجل عوَّضه الله خيرًا منه».

وهو درس تعلمه رجل من أهل البادية أخذ رسول الله ﷺ بيده، فجعل يعلِّمه مما علمه الله، وقال له:

«إنك لن تدع شيئًا اتقاء الله إلا أعطاك الله خيرًا منه»[1].

---

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند رقم: ٢٠٧٣٩، وصححه شعيب الأرنؤوط في المسند ط مؤسسة الرسالة ٣٤/ ٣٤٢.

الفائدة الثالثة والثلاثون: وفعل الخير يتعدى أثره إلى ذريتك من بعدك، والترك من أجل الله قد تتجاوز بركته إلى الأجيال المقبلة! رُوِي أن **المتوكل دعا مُحَمَّد بْن عَبْد الملك بْن أَبِي الشوارب، وأَحْمَد بْن المعدل، وإبراهيم التيمي** من البصرة، وعرض على كل واحد منهم قضاء البصرة، فاحتج **مُحَمَّد بْن عَبْد الملك** بالسن العالية وغير ذلك، واحتج **أَحْمَد بْن المعدل** بضعف البصر وغير ذلك، وامتنع **إبراهيم التيمي**، فقال: لم يبق غيرك، وجزم عليه فولي، فنزلت حال إبراهِيم عند أهل العلم، وعلت حال الآخرين، قال أبو العلاء: فيرى الناس أن بركة امتناع **مُحَمَّد بْن عَبْد الملك** دخلت على ولده، فولى منهم أربعة وعشرون قاضيًا، منهم ثمانية تقلَّدوا قضاء القضاة. تاريخ بغداد ٦-١٩٧ دار الغرب الإسلامي - بيروت.

وحلَّل **ابن القيم** أنواع العِوَض التي يجنيها العبد إذا ترك شيئا ابتغاء وجه الله، ثم عرض أجلَّها فقال:

«والعوض أنواع مختلفة، وأجلُّ ما يعوَّض به الأنس بالله ومحبته وطمأنينة القلب به وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى»(١).

والعِوَض في القلب أغلى وأعلى وأولى، لأن نعيم القلب وراحته هي مصدر نعيم الجسد ولذته، ولذا لما وقف **سفيان بن عيينة على عبد الله بن مرزوق**، وقد جمع بطحاء تحت رأسه، وتحت جنبه رمل يُسفي عليه التراب، فقال له **سفيان:**

يا أبا محمد إنه من ترك شيئًا من الدنيا عوَّضَه الله عليه في الدنيا، فما الذي عوَّضك مما تركت؟!

قال:

«الرضا بما أنا فيه الآن»(٢).

ولكل واحد منا مع هذا القانون الرباني قصة يحتاج أن يستخرجها من ذكريات الماضي لتنير له آفاق المستقبل.

وصدق شيخ الإسلام **ابن تيمية** حين قال:

«من كان في الله تَلَفُه كان على الله خلَفُه»(٣).

ومحال أن لا يُخلِف الله على الباذل في سبيله، ولا يؤتيه خيرًا مما بذل، فإن لم تجد العِوَض من ربك فاتهم نفسك، وراجع قلبك، فالله أكرم، وجوده أعمُّ وأشهر.

---

(١) الفوائد ص ١٠٧ ابن القيم – ط دار الكتب العلمية.

(٢) الزهد الكبير للبيهقي ١/ ٣٣٧. **الفائدة الرابعة والثلاثون**: قال **عبد الواحد بن زيد**: «الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين». الرضا عن الله لابن أبي الدنيا ص ٥١

(٣) قاعدة في الصبر ص ٩٩ – شيخ الإسلام ابن تيمية – ط الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

ولذا قال **الخواص**:

«من ترك شهوة فلم يجد عِوَضها فِي قلبه فهو كاذب في تركها»[1].

ويشرح هذا في مزيد إبانة ومسلطا الضوء على عملية دور النية الصالحة والإخلاص في ترك الحرام وصياغة نفسية تارك الحرام، فيقول **ابن القيِّم**:

«إنما يجد المُشَقَّة فِي ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله، فأما من تَركها صادقا مخلصًا من قلبه لله، فإنه لا يجد في تركها مشقة إلَّا في أول وهلة ليمتحن أصادق هو في تركها أم كاذِب، فإن صَبَرَ على تلك المشَقَّة قليلا استحالت لذَّة»[2].

قدِّم تجد!

وهي قاعدة قطعية لا ظنية، وانظروا ما حدث مع **عبد الله بن عمر** رضي الله عنه، قد باع غلامًا له بثمانمائة درهم، وباعه بالبراءة «أي البراءة من العيوب»، فقال الذي اشتراه **لعبد الله بن عمر**: بالغلام داء لم تسمِّه لي، فاختصما إلى **عثمان بن عفان**، فقال الرجل: باعني عبدا وبه داءٌ لم يسمِّه، وقال **عبد الله**: بعتُه بالبراءة، فقضى **عثمان بن عفان** على **عبد الله بن عمر** أن يحلف له لقد باعه العبد، وما به داءٌ يعلمه، فأبى **عبد الله** أن يحلف، وارتجع العبد، فباعه **عبد الله** بعد ذلك بألف وخمسمائة درهم!![3].

فحين ترك **عبد الله** الحَلِف تعظيمًا وإجلالاً لربه؛ أعاضه الله عن ذلك ضعف ربحه، فتعلَّمْ الدرس، وانسج على المنوال، واعلم أن جود الله وعطاءه لك فوق ما تظن، وإن لم تقنع بقديم الحكاياتِ وعبير السلف، فإليك الحديث منها والمعاصر مع خير خلف، وتَعَلَّمْ

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٨٧ - ط دار المعارف. **الفائدة الخامسة الثلاثون**: قال **ابن القيم**: «ما أخذ العبد ما حُرِّم عليه إلَّا من جهتين إحداهما: سوء ظنِّه بربه، وأنه لو أطاعه وآثره لم يُعْطه خيرا منه حلالا، والثَّاني: أن يكون عالما بذلك، وأن من ترك لله شيئًا أعاضه خيرا منه، ولكن تغلب شهوتُه صبرَه، وهواه عقلَه، فالأول من ضعف علمه، والثَّاني من ضعف عقله وبصيرته».

(٢) الفوائد ١/ ١٠٧.

(٣) موطأ مالك ٢/ ٣٠٩- ط مؤسسة الرسالة.

من الأزهري الفقير.

الأزهري الفقير

يُرْوَى أن طالب علم في الأزهر قدم من بلاد الصعيد فجلس في حلقة شيخه، وتأخرت نفقته من الصعيد ففارق حلقة الشيخ عساه أن يحصل على كِسْرَات من الخبز ولقيمات يقتات بها ويتقوى، فبينما هو يسير إذ دخل في شارع ضيق، فوجد بابًا مفتوحًا، ووجد خزانة من الطعام فمد يده إلى الطعام، ثم بعد أن تناول قطعة ووضعها في فمه تذكر أنه جاء ليطلب العلم، والعلم نور، والأكل من هذا الطعام دون إِذْنِ صاحبه ظُلْمَة للقلب، ولا يمكن اجتماع الظلمة مع النور سَوِيًّا، وسيطرد أحدهما الآخر، فترك هذا الطعام وعاد لحلقة شيخه، وبه من الجوع ما الله به عليم.

وبعد الدرس إذا بامرأة تأتي وتكلم الشيخ بكلام لم يسمعه الحاضرون، ولما انصرفت قال الشيخ لهذا الطالب:

ألك رغبة في الزواج؟! قال أتهزأ بي؟! والله ما دخل جَوْفِي طعام منذ ثلاثة أيام فكيف أتزوج؟!

قال الشيخ: إن المرأة تُوُفِّي زوجها وترك لها ابنة صالحة ومالاً كثيرًا، وتريد رجلا صالحًا يتزوج البنت ويرعى المال، فقال الشاب: إن كان كذلك فلا بأس، فخرجوا جميعًا حتى وصلوا الدار فلما وُضِعَ الطعام بكى هذا الشاب، فقال له الشيخ: لم تبكي؟! هل أكرهناك على الزواج؟

قال: لا، ولكني من سُوَيْعَات دخلت هذا البيت لآكل هذا الطعام الذي وُضِعَ بين أيدينا فذَكَرْتُ أنه حرام فتركته لله، فأعاده الله لي ومعه غيره عن طريق الحلال.



نور الوجـــوه

إن الرجل لينقطع إلى مَلِك من ملوك الدنيا فترى أثره واضحًا ظاهرًا، فكيف بمن ينقطع إلى ملك الملوك ألا يُرى أثره عليه؟!

وجوه المحسنين أضوأ من البدر.. وجباههم أنور من الشمس.

قيل **للحسن البصري**: ما بال المتهجدين باللَّيل من أحسن النَّاس وجوهًا؟! قال:

«لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره»[1].

لِلّه قـــومٌ أخلصـــوا فـي حُبِّه ... فكسا وجوههمُ الوسيمة نـورًا

ذكروا النَّعيم فطلَّقوا دنياهمُ ... زُهدًا فعوَّضهم بذاك أجـورًا

قاموا يُنــاجون الإلــه بأَدْمُعٍ ... تجــري فتحْكي لؤلؤًا منثورًا

هؤلاء قوم ابيضت وجوههم بالحسنات قبل الممات، وأشرقت بنور القرب من الله في واحة السجدات، وكأن معانقة الظلام بالليل طريق إشراقة الوجه بالنهار، وذلك حين سوَّد غيرهم وجهه بخطاياه، ولطَّخه بما جنت يداه، فوجهه عابس تغشاه ظلمة ولو كان أبيض البشرة من أحسن الناس لونا!

هل سمعت يومًا عن الإمام القدوة **تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي**؟!

إن لم تكن سمعت عنه فاسمع مِنِّي ما وصفه به الإمام **الذهبي**:

«كان عظيم الخَلْقِ، تام القامة، كأن النور يخرج من وجهه»[2].

كأنَّما الشمس في أعطافه لمعت ... حُسنا أو البدر مـن آزاره طلعًا

والسر في هذا أنه «كان لا يُضَيِّع شيئًا من زمانه بلا فائدة، فإنه كان يصلي الفجر، ويُلَقِّن القرآن، وربما قرأ شيئًا من الحديث تلقينًا، ثم يقوم فيتوضأ، ويصلي ٣٠٠ ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قبل الظهر، وينام نومه ثم يصلي الظهر، ويشتغل إما بالتسميع أو النسخ إلى المغرب، فإن كان صائمًا أفطر، وإلا صلى من المغرب إلى العشاء، ويصلي العشاء، وينام إلى نصف الليل أو بعده، ثم يقوم كأن إنسانًا أيقظه، فيصلي لحظة ثم يتوضأ ويصلي إلى قرب الفجر، وربما توضأ سبع مرات أو ثمانية في الليل، ويقول: ما تَطِيبُ لي الصلاة إلا وأعضائي

(١) المدهش ٥٢٣ - ابن الجوزي - ط دار الكتب العلمية.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٤٦ - الإمام الذهبي - ط مؤسسة الرسالة.

رطبة، ثم ينام نومه يسيرة إلى الفجر، وهذا دأبه»[1].

تُرَى من أي طاعة وهبه الله هذا النور؟!

أمِنْ صلاته بالليل؟!

أم تلقينه القرآن؟!

أم من صيامه؟!

أم كثرة وضوئه؟!

أم من كل هذا معًا؟!.

أيها الفقير...

نافِسْ أخاك في دينه عسى الغني أن يجود عليك كما جاد على عبد الغني..

أين الغيرة يا رجل؟!

ألا تغار إلا في أمر دنيا؟!

ألا تنافس إلا على متاع زائل؟!

فأسْرِجْ نور وجهك من الآن يا أخي وقد عرفت الطريق.

فيض النور

إن نور الطاعة مع دوامها لن يزال في تصاعد وازدياد حتى يفيض على الوجه والجوارح كما فاض من قبل على الكلام والأعمال، فنور الوجه هو غيض من فيض، وصاحب الطاعة حين اتصل بالله استضاء بنور الوحي، واستنار بسراج الإيمان، ولذا أشرق من وجهه النور، وهل نور كأنوار النبوة؟! جاء في وصف **أم مَعْبَد** الخزاعية لرسول الله حين قال لها زوجها: صفيه لي يا **أم معبد**، فقالت:

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٥٢،٤٥٣ - الإمام الذهبي - ط مؤسسة الرسالة.



«رأيتُ رجلاً ظاهر الوضاءة.. مليح الوجه...»[(١)].

وهو ما قاله **ابن تيمية** في ملاحظة دقيقة تربط بين القلب والوجه، فقال رحمه الله:

«ما في القلب من النور والظلمة، والخير والشر؛ يسري كثيرًا إلى الوجه والعين، وهما أعظم الأشياء ارتباطا بالقلب»[(٢)].

والمؤمن وحده يرى بعيني قلبه هذه الثمار وتلك الأنوار، فاستمسك بهذا الكنز الخفي والنور البهي، ولم يستبدل الظلام بالضوء، والسيئات بالحسنات، بل انطلق مع الشاعر المؤمن ينشد:

صُن الحُسْن بالتقوى وإلا فيذهب ... فنور التُّقى يكسو جمالا ويُكسِب
وما ينفع الوجه الجميل جمالَه ... وليس له فعلٌ جميلٌ مُهذَّب
فيا حَسَن الوجه اتَّق الله إنْ تُرِدْ ... دوامَ جمالٍ ليس يفنى ويذهب
يزيد التُّقى ذا الحُسن حُسنا وبهجة ... وأما المعاصي فهي للحُسْنِ تَسْلِب
وتَكْسِف نورَ الوجه بعد بهائه ... وتكسوه قُبْحا ثم للقلب تَقْلِب
فسارع إلى التقوى هنا تجتد الهنا ... غدا في صفا عيش يدوم ويَعْذُب

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني ١/ ٣٣٧ - ط دار النفائس.
(٢) الاستقامة ١/ ٣٥٥ - ط جامعة الإمام محمد بن سعود. **الفائدة السادسة والثلاثون**: ولهذا رُوِي عن **عمر بن الخطاب** أنه أمر بتعزيز شاهد الزُّور بأن يسود وجهه ويركب مقلوبا على الدَّابة، فإن العقوبة من جنس الذَّنب، فلما اسود وجهه بالكذب وقلب الحديث سوَّد وجهه، وقلب في ركوبه.

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

كان **أبو سعيد الخزاز** يقول:

﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]

هل جزاء من انقطع عن نفسه إلا التعلق بربه؟!

وهل جزاء من انقطع عن أنس المخلوقين إلا الأنس برب العالمين؟!

وهل جزاء من صبر علينا إلا الوصول إلينا؟!

ومن وصل إلينا هل يجمل به أن يختار علينا؟!

وهل جزاء التعب في الدنيا والنصب فيها إلا الراحة في الآخرة؟!

وهل جزاء من صبر على البلوى إلا التقرب إلى المولى؟![١].

(١) شعب الإيمان ٢/ ١٩ - أبو بكر البيهقي - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض.

وتأمل كثرة حسنات أحمد بن حنبل وأنت تقرأ قوله:

«ما كتبت حديثًا إلا وقد عملت به، حتى قولي: إن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت»[١].

حرص -رحمه الله- على اتباع كل سنة للنبي ﷺ بل كل عادة له ﷺ ولو كان في ذلك خطر على حياته.

قال **إبراهيم بن هانئ**:

اختبأ عندي **أحمد بن حنبل** ثلاث ليال ثم قال لي: اطلب لي موضعًا حتى أدور. قلت: إني لا آمن عليك يا **أبا عبد الله**، فقال:

«إن النبي ﷺ اختفى في الغار ثلاثة أيام، وليس ينبغي أن تتبع سُنَّة النبي ﷺ في الرخاء وتترك في الشدة»[٢].

لـــه هِـمَـمٌ لا منتهـــى لكبـــارها   وهِمَّتُه الصغـرى أَجَلُّ من الدهـرِ
لـــه راحـة لو أن معشـــار جـودها   على البَرِّ كان البَرُّ أَنْدَى من البحرِ

وانظر إلى قطرة من كراماته، ولمحة من حُسْنِ حسناته:

قال **الوركاني**: «أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفا من اليهود والنصارى والمجوس، ووقع المأتم والنوح في أربعة أصناف من الناس: المسلمين واليهود والنصارى والمجوس!!»[٣].

قال **ابن الجوزي**:

«لما وقع الغرق ببغداد سنة ٥٥٤هـ وغرقت كتبي، سلم لي مجلد فيه ورقتان من خط الإمام أحمد رحمه الله!!»[٤].

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٣.
(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية ٢/ ٢١.
(٣) تاريخ بغداد ٥/ ١٨٨.
(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية ٢/ ١٣.

وقال **علي بن الحسن الزينبي** قاضي القضاة:

«إن الحريق وقع في دارهم فاحترق ما فيها إلا كتابًا فيه شيء بخط أحمد!!»[1].

قال **شمس الدين الذهبي**:

«وكذا استفاض وثبت أن الغرق الكائن بعد العشرين وسبع مائة ببغداد عَامَ على مقابر مقبرة أحمد، وأن الماء دخل الدهليز علو ذراع ووقف بقدرة الله، وبقيت الحُصْرُ حول مقابر الإمام بغبارها، وكان ذلك آية!!»[2].

وهذه **فاطمة بنت أحمد بن حنبل** تروي الأعاجيب حول أبيها فتقول:

«وقع الحريق في بيت أخي صالح، وكان قد تزوج إلى قوم مياسير، فحملوا إليه جهازا شبيها بأربعة آلاف دينار، فأكلته النار، فجعل صالح يقول ما غمني ما ذهب مني إلا ثوب أبي كان يصلى فيه أتبرك به وأصلي فيه، قالت: فطفئ الحريق ودخلوا فوجدوا الثوب على سرير قد أكلت النار ما حوله والثوب سالم!!»[3].

دعاء شهر!

ومن الكرامات الرائعة كرامة الوزير الصالح **يحيى بن هبيرة**، فقد أحسن معاملة ربه فاتقاه وعدل في رعيته، وسيرته العطِرة صارت مضرب الأمثال، فأحسن الله إليه غاية الإحسان، وبلغ من إحسانه أنه واظب على الدعاء شهرا مستبشرًا بإحسان الله له وإجابة دعائه فاستجاب الله له! وهي القصة التي حكاها **ابن الجوزي**:

«لما استطال السلطان **مسعود** (السلجوقي) وأصحابه وأفسدوا، عزم هو (**الوزير يحيى بن هبيرة**) والخليفة (المقتفي لأمر الله) على قتاله.

قال **يحيى**: ثم إني فكرتُ في ذلك، ورأيت أنه ليس بصواب مجاهرته لقوة شوكته، فدخلتُ

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٣٠.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٣١.
(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية ٢/ ١٢.





على المقتفي، فقلت: إني رأيت أن لا وجه في هذا الأمر إلا الالتجاء إلى الله تعالى، وصدق الاعتماد عليه، فبادر إلى تصديقي في ذلك، وقال: ليس إلا هذا، ثم كتبتُ إليه: أن رسول الله ﷺ قد دعا على رَعْل وذِكْوان شهرا، وينبغي أن ندعو نحن شهرًا، فأجابني بالأمر بذلك.

قال الوزير: ثم لازمْتُ الدعاء في كل ليلة وقت السَّحَر أجلس فأدعو الله سبحانه، فمات مسعود لتمام الشهر، لم يَزد يوما ولم ينقص يوما! وأجاب الله الدعاء، وأزال يد مسعود وأتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم، وهذه القصة تُذكَر في كرامات الخليفة والوزير»[1].

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٢٧، ١٢٨.

الحسنات الولود

قال إبراهيم بن علي المرثَدي:

«من المحال أن تعرفه ثم لا تحِبَّه، ومن المُحال أن تُحِبَّه ثم لا تذكره، ومن المحال أن تذكره ثُمَّ لا يُوجِدُك طعم ذكره، ومن المُحال أن يوجِدَك طعم ذكره ثُمَّ لَا يُشْغِلُكَ به عما سواه»[١].

(١) شعب الإيمان ٢/ ١٨.

كان **أبو سليمان الداراني** يقول:

«من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره»[١].

فمن حُسْن الحسنات أن الرجل فينا إذا عمل حسنة كافأه الله عليها فوفَّقه لأداء حسنة أخرى، وحسنة تجلب حسنة وهلُمَّ جرًّا.

إذا أردت حيازة حسنة قيام الليل فقَدِّمْ حسنة غَضِّ البصر في النهار، وإذا رغبت في حسنة صلاة الفجر فقَدِّمْ حسنة صدقة السِّرِّ، وإذا طلبْت قلبك في الصلاة فلم تجد حسنة الخشوع فقدِّمْ حسنة التبكير إلى الصلاة.

وضَعْ كلمة **عروة بن الزبير** التي يرويها عن أبيه **الزبير بن العوام** حلقة في أذنك، وهي عصارة تجاربه الإيمانية، وهو عبد رباني خُلِق من طين عُجِن بنور الوحي وجلال القرآن:

«إذا رأيتَ الرجل يعمل الحسنة فاعلم أن لها عنده أخوات، وإذا رأيته يعمل السيئة فاعلم أن لها عنده أخوات، فإن الحسنة تدل على أختها، وإن السيئة تدل على أختها»[٢].

ويضرب لنا الإمام **ابن القيم** مثلاً جميلاً يستهدف به تحفيز النفس على الطاعة وإغراءها بالإقدام وجذبها نحو الخير فيقول:

«مثال تولد الطَّاعَة ونموها وتزايدها كَمثل نواة غرستها فصارت شجرة، ثمَّ أثمرت فأكلت ثمرها وغرست نواها، فكلما أثمر منها شيء جنيتَ ثمره وغرستَ نواه، وكذلك تداعي الْمعاصي، فليتدبَّر اللبيب هذا المثال فمن ثواب الْحسنة الحسنة بعدها ومن عُقُوبَة السَّيئَة السَّيئَة بعْدها»[٣].

ولا تزال حسنات العبد تتوالى وقرباته تتكاثر وبركاته تتزاحم حتى يصل إلى حال عجيبة؛ تصير معها الطاعة عنده بمثابةالأنفاس، لو توقفت لاختنق! لتشكِّل بذلك عادة راسخة وصفة لازمة، فلو عطَّل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٣٨٤ - الإمام ابن الجوزي - ط دار الحديث.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٣٤٩.
(٣) الفوائد ص ٣٥ ط دار الكتب العلمية.

بما رحبت حتى يعود إلى الطاعة»[١].

وتوالي الحسنات من علامات التوفيق، والتي يمنحها الله لعبده الطائع مكافأة له على ابتداء الخير:

«دخول أعمال البِرِّ عليك من غير قصد لها، وصرف المعاصي عنك مع الطلب لها، وفتح باب اللجا والافتقار إلى الله عز وجل في الشدة والرخاء»[٢].

من أسرار الاستمرار!

وسرُّ ذلك أن الله يعين العبد المقبل عليه ويؤيِّده، ومن صور هذا التأييد أن يمِدُّه بملائكة تؤزه أزا، وتؤازره أعظم المؤازرة، والملائكة هم الجنود الأخفياء والأعوان الأقوياء في معركة الإيمان، وما عاونوك إلا لسابق إحسانك وابتدائك بالخير.

وتتفات قوة التأييد بحسب إيمان العبد. قال **ابن تيمية**:

«والتأييد بحسب الإيمان، فمن كان أقوى من غيره، كان جنده من الملائكة أقوى، وإن كان إيمانه ضعيفا كانت ملائكته بحسب ذلك»[٣].

ويقول في موضع آخر أبان فيه أهمية الحسنات كمًا وكيفًا.. محفِّزًا لك في تكثيرها مع انتقاء أقواها:

«فإذا كانت حسنات الإنسان أقوى، أيِّد بالملائكة تأييدا يقهر به الشيطان، وإن كانت سيئاته أقوى، كان جند الشيطان معه أقوى»[٤].

إنها معركة بكل ما تحويها الكلمة من معان، وبحسب جنودك وأعوانك تحدِّد نتيجة الصراع وتخطو واثقا نحو الانتصار، وبذا تستطيع أن تفهم مغزى قول **ابن القيم** الرائع

(١) الجواب الكافي ص٥٦- دار المعرفة.
(٢) قوت القلوب ١/ ١١٥.
(٣) النبوات لابن تيمية ٢/ ١٠٦٢ ط أضواء السلف بالرياض.
(٤) النبوات لابن تيمية ٢/ ١٠٦٣.

يدلك على عُدَّتك وعتادك:

«كلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة له من الله أعظم»[١].

بل حتى وإن سقط وزلَّ، وعصى وغفل، فإن له قدرا عند ربه يجعل عقوبة الله له فورية ليستدرك!

قال ابن القيم:

«فيؤدِّب الله عبده المؤمن الذي يحبه -وهو كريم عنده- بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حذِرًا، وأما من سقط من عينه وهان عليه، فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة! والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد، والعقوبة التي لا عاقبة معها»[٢].

ثمن الهداية جهاد

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال السُّدِّيُّ وغيره:

«إنَّ هذه الآية نزلت قبل فرض القتال»[٣].

فالمقصود بالجهاد هنا نصرة الدين، والرد على المبطلين، والتصدي الظالمين، وهداية الغافلين، وقبل ذلك ومعه وبعده: مجاهدة النفس، والجائزة الربانية المنتظرة نظير هذا إما أن تكون زيادة اهتداء أو الثبات عليه.

فتقديم حسنة «الجهاد» ثمرتها «الهداية»، وقد تعدَّدت التفاسير لألوان الهداية، واقرأ

(١) مدارج السالكين ١/ ٩٧.
(٢) زاد المعاد ٣/ ٥٠٦
(٣) القرطبي ١٣/ ٣٦٤.

لترتقي:

«عن **الداراني**: والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا.

وعن **الفضيل**: والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به.

وعن **سهل**: والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة.

وعن **ابن عطاء**: جاهدوا فى رضاها لنهدينهم الوصول إلى محل الرضوان.

وعن **ابن عباس**: جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا.

وعن **الجنيد**: جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، أو جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا»[1].

وفي الآية لطيفة أنه ليس سبيلاً واحدًا بل سبل متعدِّدة، كأن الطريق الموصلة إلى الله تدعوك وتناديك، وترغِّبك وتغريك، فأبشر، ولا تحقِرنَّ من المعروف شيئًا، فإن الله غفر لرجل سقى كلبًا من عطش، ولآخر أمـاط جـذع شجرة عن الطريق، وثالث ورابع وخامس.

(١) تفسير النسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» ٢/ ٢٨٧– دار الكلم الطيب.





حسن الخاتمة

في صحيح البخاري:

«إنَّما الأعمالُ بالخواتيم».

قال **ابن بطال:**

«فى تغييب الله عن عباده خواتيم أعمالهم حكمة بالغة وتدبير لطيف، وذلك أنه لو علم أحد خاتمة عمله لدخل الإعجاب والكسل من علم أنه يختم له بالإيمان، ومن علم أنه يُختم له بالكفر يزداد غيًا وطغيانًا وكفرًا، فاستأثر الله تعالى بعلم ذلك ليكون العباد بين خوف ورجاء، فلا يُعجَب المطيع لله بعمله، ولا ييأس العاصي من رحمته، ليقع الكل تحت الذل والخضوع لله والافتقار إليه»(١).

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١٠/ ٢٠٣، ٢٠٤- مكتبة ابن رشد.

ومن بركات الحسنات أنها تصنع شكل خاتمتك وترسم رحلة الرجوع؛ وهي بوابة كل منا يعبرها لا محالة، فما بين رحيلٍ رائع يبشِّر صاحبه بمستقبل أروع، أو رحيل مؤلم يبشِّر بعاقبة أسوأ[1].

وحسن الخاتمة أو سوء الخاتمة يتبدى في أربع صور يشهدها المحتضر:

حال القلب:

هل هو مشتاق إلى لقاء ربه أم مُعرِض عنه؟ هل ثابت على التوحيد أم متذبذب؟!

هيئة الجسد:

هل زاره ملك الموت وهو مُحرِم؟ في صلاته ساجدًا أو قائمًا؟ هل قُبِض عقب طاعة وعبادة؟ هل مات وهو يقلِّب عينيه في مصحف أم في صورة عارية؟ هل لهج لسانه بشهادة التوحيد أم حُرِم منها؟

أرض الموت:

وهي الأرض التي مات فيها العبد فتشهد لصاحبها أو تشهد عليه.. هل قُبِض في مسجد أم حانة؟ هل مات في طريقه إلى طاعة أم معصية؟ هل كان بين صحبة صالحة أو رفاق سوء؟!

وقت الرحيل:

في أي يوم مات؟ هل قُبِض يوم الجمعة أو ليلتها[2]؟ هل دُفِن في ساعة مباركة أو ساعة

---

(١) **الفائدة السابعة والثلاثون**: سئل **أبو مسعود الأنصاري**: ماذا قال **حذيفة** عند موته؟ قال: لما كان عند السحر قال: أعوذ بالله من صباح إلى النار ثلاث مرات، ثم قال: اشتروا لي ثوبين أبيضين، فإنهما لن يتركا عليَّ إلا قليلاً حتى أبدل بهما خيرًا منهما، أو أسلبهما سلبا قبيحا. سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٦٨.

(٢) **الفائدة الثامنة والثلاثون**: في فضل الموت يوم الجمعة أو ليلتها قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر**». حسن: رواه أحمد والترمذي عن عبد الله بن عمرو كما في مشكاة المصابيح رقم: ١٣٦٧ وصحيح الجامع رقم: ٥٧٧٣.

إجابة كساعة الإجابة يوم الجمعة؟

فمن حسنت وفادته على ربه فحصَّل واحدة من هؤلاء الأربع كانت بشارة لما سيلقاه بعد الموت من جوائز غاليات ونعيم مقيم، ومن ساءت الوفادة منه، فلا يلزم أن يكون ما بعدها أسوأ، إذ ربما يتداركه ربه برحمة منه وعفو، أو ربما آخذه بعمله وعذَّبه، فأمره إلى الله.

قال **أبو جعفر التَسْتُري**: حضرنا **أبا زُرعة الرازي** وكان في سياق الموت، وعنده جماعة من العلماء، فذكروا حديث التلقين وقوله ﷺ: **«لَقِّنُوا موتاكم لا إله إلا الله»**، فاستحيوا من **أبي زُرْعَة** وهابوا أن يُلَقِّنُوه، فقالوا: نذكر الحديث، فقال أحدهم: أنبأنا **الضحاك بن مخلد** عن **عبد الحميد بن جعفر** عن **صالح**. ولم يكمل، فقال **أبو زُرعة** وهو في السَّوق: «النزع الأخير»:حدَّثنا **بندار**، حدَّثنا **أبو عاصم**، حدَّثنا **عبد الحميد بن جعفر**، حدَّثنا **ابن أبي عَريب** عن **كُثَيِّر بن مُرَّة الحضرمي** عن **معاذ بن جبل** رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله...»**[١]، ولما قال: **«لا إله إلا الله»** خرجت روحه مع الهاء قبل أن يقول: **«دخل الجنة»**.

وقد رأى بعض هؤلاء الصالحين ما لم نره حين انكشف عنه الغطاء، فأخبر بما رأى، ومن ذلك ما حُكِي عن شيخ الإسلام **أبي الفتح نصر بن إبراهيم النابلسي** أنه سُمِع قبل موته بلحظة وهو يقول:

يا سيدي أمهلوني! أنا مأمور وأنتم مأمورون!

ثم سمع مرافقه المؤذن بالعصر، فقال: يا سيدي.. المؤذن يؤذِّن، فقال له: أجلسني، فأجلسه، فأحرم بالصلاة، ووضع يده على الأخرى وصلى، ثم تُوفِّي من ساعته[٢].

---

(١) شعب الإيمان ١١/ ٤٤٠ والحديث صحيح رواه الحاكم وابن حبان والبزار وأحمد وحسَّن هذا الإسناد الشيخ شعيب الأرناؤوط كما في مسند أحمد رقم: ٢٢٠٣٤. **الفائدة التاسعة والثلاثون**: قال **الحافظ** في الفتح: والمراد بقول لا إله إلا الله في هذا الحديث وغيره: كلمتا الشهادة، فلا يَرِد إشكال ترك ذِكْر الرِّسالة. قال **الزَّيْن بن المنير**: قول لا إله إلَّا الله لقب جرى على النُّطْق بالشَّهادتين شرعا. عون المعبود ٧/ ١٠٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٤٣ **الفائدة الأربعون**: فأين هذا من كراهية الملائكة لعبد السوء، وحيلولتهم بينه وبين التوبة، واسمع ما حدث مع عدو الله فرعون كما في الحديث: **«لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل. قال جبريل: يا محمد! فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة»**. صحيح: رواه أحمد والترمذي عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٠٦.

رد شبهة!

ويقرع سمعك هذا الحديث:

«فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار»(١)..

ليقف المرء حائرًا.. أيعبد الرجل ربه ستين سنة، ثم يختم الله له بسوء؟! وكيف يعمل أحد بعمل أهل الجنة طوال حياته ثم يصلى نار جهنم؟! والإجابة تجدها في ثنايا حديث آخر يوضِّح لك ما التبس عليك:

«إن الرجل ليعمل عمل الجنة في ما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل النار في ما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»(٢).

إنها إذن دسيسة في قلبه وبذرة رياء خبيثة بين حواياه، وهي التي هوت به نحو الهاوية، فلا تظن بربك سوءا، فهو سبحانه أكرم الأكرمين، وأجلُّ من أن يرد إحسان عبده بعقوبة! كيف وهو الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويعفو عن الكثير من الزلل، ولا يضيع أجر من أحسن عملا بل يضاعفه أضعافا كثيرة بغير عد ولا حساب.

والعبد الصالح يحسن الظن بربه، ويستبشر بثوابه الذي وعده الله به، وليس هذا فحسب بل ينقل البشرى إلى من حوله، وينشر فيهم التفاؤل والظن الجميل برب العالمين، واسمع **الرافعي** ينشد:

إذا أمسى فراشي من تراب ... وصرتُ مجاورَ الرَّب الرَّحيم
فهنّوني أحبّائي وقولوا ... لك البُشرى قدمتَ على كريم

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ١٥٤٣.
(٢) صحيح: رواه الشيخان عن سهل بن سعد كما في صحيح الجامع رقم: ١٦٢٤.

خاتمتان رائعتان..

وماذا عن خواتيم العصر الحديث؟

إليك خاتمتين:

الأولى من مصر: وهي للخطيب الأشهر فارس المنابر **عبد الحميد كشك**، وهو الذي طالما دعا ربه قائلاً:

«أحيني إمامًا، وأمتني إمامًا، واحشرني وأنا ساجد بين يديك يا رب العالمين».

وفي يوم الجمعة الموافق السادس من ديسمبر لعام ألف وتسعمائة وست وتسعين للميلاد، وبينما هو في بيته يتجهَّز لصلاة الجمعة، ويؤدي صلاة النافلة قبل التوجه لصلاة الفريضة في المسجد، وبينما هو في السجدة الثانية سجد سجودًا طويلاً لم يقم منه، فقد فاضت روحه إلى بارئها، وختم حياته بين يدي ربه كما تمنى، وكأن الله كافأه ليتخرَّج من مدرسة الحياة مترقيا إلى درجة سامية ومنزلة رفيعة في حياة أخرى لا تعب فيها ولا نصب، لا ظلم فيها ولا حَزَن، وما أحلى أن يتمنى عبدٌ على الله أمنية فيلبّيها الله، ويُقسِم على الله فيبر الله قسمه، ويصدق الله فيصدقه، ويحشره الله ساجدا يوم القيامة كرامة وتشريفًا وتكريمًا.

والثانية من فلسطين: وهي لشيخ غزة وباعث عزتها الشيخ **أحمد ياسين**.

حين زرت غزة قابلتُ إخوان شيخ المجاهدين **أحمد يس**، فأخبروني أن الطبيب كان قد أبلغهم قبيل استشهاده بأيام قلائل أن حالة الشيخ الصحية حرجة، وأنه يتوقع موته خلال بضعة أيام، فجعل الله منيته عن طريق صاروخ قلَّده وسام الشهادة بدلاً من أن يختطفه مرض عضال أو أزمة قلبية! وظل الشيخ حيا في مكان آخر.. أحلى! وأعلى! وأغلى! نحسبه كذلك والله حسيبه، والأمر كما قال **المعري**:

خُلق النـاس للبقاء فضلَّت	أمـــة يحسبـونهم للفنـاء
إنما يُنقلون من دار أعمال	إلـى دار شـقــوة أو رشـاد



فهرس الفوائد

الفائدة الرابعة عشرة: في حسن تدبير الله لعباده ولو رأوا غير ذلك، وذلك في قول جميل للإمام الحسين.	
الفائدة الخامسة عشرة: قول نفيس لابن القيم في أن الله لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيرا له، ساءه ذلك القضاء أو سرَّه.	
الفائدة السادسة عشرة: في حقيقة فقر القلب.	
الفائدة السابعة عشرة: في عقوبة من ترك ما ينفعه في أنه يُبتلى بالاشتغال بما يضره.	
الفائدة الثامنة عشرة: في بيت واحد وضعه الخليل بن أحمد ليجمع حروف المعجم في بيت واحد.	
الفائدة التاسعة عشرة: ولأنهم يعاملون الله وحده، ولا يرجون الأجر إلا منه، فقد أسقطوا رؤية الخلق من قلوبهم.	
الفائدة العشرون: في استحباب الإنفاق من خير مالك لا مما خبث منه.	
الفائدة الحادية والعشرون: في بركة إنفاق عائشة رضي الله عنها وعظيم أثره، وقصة لطيفة في ذلك.	
الفائدة الثانية والعشرون: في تفسير قول الله تعالى «ومن يتق الله يجعل له مخرجا»، ومعنى المخرج في هذه الآية على أقوال ثمانية.	
الفائدة الثالثة والعشرون: في معاملة الله لنا بفضله لا بعدله، وبما هو له أهل لا بما نحن له أهل.	
الفائدة الرابعة والعشرون: قال ابن تيمية: «وقد بيَّن سبحانه في هذه الآية أن المتقي يدفع عنه المضرة، وهو أن يجعل له مخرجا مما ضاق على الناس	



الفائدة الخامسة والعشرون: في تعليق الإمام النووي على حديث الشفاعة، وأنواع الشفاعة المحمودة.	
الفائدة السادسة والعشرون: في قول جميل لابن رجب في فضل مراعاة حدود الله في حال رخائه وصحته لينجيه الله بذلك من الشدائد عند نزولها.	
الفائدة السابعة والعشرون: قول رائع لابن العربي في تعجيل عقوبة الساكت عن المنكر في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات.	
الفائدة الثامنة والعشرون: في موقف جميل لعمر بن عبد العزيز وعقوبته للساكت عن إنكار المنكر.	
الفائدة التاسعة والعشرون: في بيت شعر جميل لمحمود غنيم عن تبديد الأوقات وتضييع «الساعات» واستخدام التَّورية فيها.	
الفائدة الثلاثون: في عوامل اختلاف قدر النوم من شخص لآخر بحسب أربعة عوامل هامة، وهو كلام هام في هذا الأمر.	
الفائدة الحادية والثلاثون: عُقد الشيطان الثلاثة وكيف الانفكاك منها	
الفائدة الثانية والثلاثون: التغيير في الكِبَر أصعب وأشق على النفس	
الفائدة الثالثة والثلاثون: في تعدي أثر فعل الخير إلى ذريتك من بعدك، والترك من أجل الله قد تتعدى بركته إلى الأجيال المقبلة.	
الفائدة الرابعة والثلاثون: في أن الرضا هو باب الله الأعظم.	
الفائدة الخامسة والثلاثون: في شرح رائع لان القيم لسبب أخذ العبد ما حُرِّم عليه، وكيف أنه من جهتين إحداهما: سوء ظنِّه بربه، والثَّاني: في غلبة شهوته لصبره.	
الفائدة السادسة والثلاثون: في كيفية تعزير عمر بن الخطاب لشاهد الزُّور بأن يسود وجهه ويركب مقلوبا على الدَّابة، وفي أن العقوبة من جنس الذَّنب.	

الفائدة السابعة والثلاثون: في قول حذيفة عند موته، واستعاذته من النار ثلاث مرات، وقوة يقينه بالآخرة.	
الفائدة الثامنة والثلاثون: في فضل الموت يوم الجمعة أو ليلتها.	
الفائدة التاسعة والثلاثون: في قول الحافظ ابن حجر في المراد بقول لا إله إلا الله في هذا الحديث وأن المقصود به كلمتا الشهادة.	
الفائدة الأربعون: كراهية الملائكة لعبد السوء، وحيلولتهم بينه وبين التوبة.	



أولا: الكتب

١) شباب جنـان

(كتاب + كتيبات متفرقـة: سلامة قلبك - غرامة تأخـير - أحلى صحبة - نقطـة رجوع)

سلسلة تستهدف الشباب، فالشباب بذرة غالية منحها الله لكم يا شباب، وترك لكم أن تختاروا الأرض التي تبذرون فيها:

إما الأرض الطيبة وهي بيئة الخير على أن ترعوها وتتعاهدوها بغيث الإيمان وزاد الخير، وتحموها من الآفات والمهلكات، وإما أن ترموا بها في أرض بور هي صحبة الشر؛ حيث لا ماء يروي القلب ولا هواء ينعشه ويغذِّيه.

والثمرة الأكيدة: شجرة ساقها من ذهب في الجنة تستظلون تحتها، أو شجرة زقوم ملتهبة في جهنم تُعذَّبون بها، ولكم وحدكم مطلق الاختيار.

٢) معًا نصنع الفجر القادم:

كتاب يبث الأمل في القلوب ويبشِّر بحتمية الانتصار عن طريق إشاعة: خماسية الألم، وخماسية الأمل، وخماسية السُّنن، وخماسية العمل، وخماسية الهمم.

٣) رُدَّ إليَّ روحي

(بجزءيـه: بـأي قلـب نلقـاه وجرعـات الـدواء)

موسوعة قلبية شاملة موضوعها القلوب، وتتناول قصة قلب أصيب بأمراض خطيرة أوشك معها على الهلاك، فأُدخِل العناية المركزة الإيمانية، وهناك امتنع عن كثير من آفات عديدة كانت سبب مرضه، ثم تلقى جرعات دواء مكثفة قارب معها على الشفاء، لكنه تعرض لانتكاسة مفاجئة أنقِذ منها في آخر لحظة، ثم واظب على العلاج حتى أتم الشفاء،

وأنهى فترة النقاهة، ثم خرج بفضل الله أقوى وأفضل مما كان، يُداوي ويشفي بإذن الله غيره بعدما تداوى وشُفِي.

٤) هبي يا ريح الإيمان

(كتاب + كتيبات متفرقة)

كتاب يحوي عشر نسمات تهدف إلى زيادة الرصيد الإيماني ودعم الذاتية التعبدية.

٥) سباق نحو الجنان:

كتاب يتناول صفات القلوب المتسابقة نحو الآخرة، ورسوم الاشتراك في السباق، مع ذكر الواحات التي تأوي إليها القلوب، والعقبات التي تعترضها، مع وصايا عشر تساعد على البدء فورا في السباق.

٦) صفقات رابحة:

(كتاب + كتيبات متفرقة)

عشر صفقات تعبِّر عن عشر عبادات متنوعة تتضمن كل صفقة منها: تسهيلات الصفقة أي ما يعينك عليها، وأرباحها وتشمل ثوابها الذي يدفعك إليها، والشروط الجزائية.

٧) رحلة البحث عن اليقين:

يتناول معنى اليقين، وكيف غرس النبي ﷺ اليقين، والعقبات التي تحول دونه، وتوائم اليقين، وكيف الوصول إليه.

٨) أول مرة أصلي:

وهو هذا الكتاب الذي بين يديك، وهي رائعة من روائع ابن القيم، هذَّبتها وبسطَّتها وشرحتها وأضفت إليها أضعاف معانيها، لتجعل بإذن الله لصلاتك طعما آخر ومذاقا

أروع، وستحس أنك لم تكن تصلي قبلها، فشتان ما بين صلاتك هذا الكتاب وصلاتك بعده، ومن هنا جاء اسم الكتاب، لأنها تجربتي الشخصية معه التي أردت أن أنقلها لك، ولا أحرمك منها مثقال ذرة، فأقبل على حياتك الجديدة في ظل صلاتك اللذيذة الممتلئة بالمعاني الجليلة.

٩) ونطـق الحجــــاب:

وهي رسالة تخاطب الأخت المسلمة تعلمها االطريق إلى أفضل حجاب من خلال سردها لثمرات الحجاب المزهرة، وأشواك التبرج المهلكة، ويركِّزالكتاب على الحجاب كسلوك قبل أن يكون زيـًا.

١٠) يا صاحـب الرسالــة:

كتـاب يخاطب من حمـل دعـوة الإسلام، واحترق قلبه كمدا على حال أمتنا، فأضـاء بهمتـه ما حولـه، وفي الكتــاب: علامـات حمل هذا الهَمِّ النبيل، وكيف يُقدِّم صاحب الرسالـة الدعـوة في اختياراتـه من اختيـار زوجـة وبذل وقـت، وكيـف يضمن أن لا تفارقـه في أي من لحظـات حياته، وما هي الحواجز التي تحـول بينـه وبـين هذا الهدف النبيل، وما الذي يجعـل الخـير ينتفض من بين جوانحه تهيب بالناس أن يهتدوا، ويلتحقـوا بالركـب المبارك والقافلة التي يقودها سيد الكونـين محمــد ﷺ.

١١) الحرب على الكسل:

(١٠ طلقات في قلب الكسل)

كتـاب يستهدف علاج الفتور والتعامل الصحيح مع مواسم الكسل، وذلك عبر عشر خطوات ناجعة هي أقرب إلى خارطة طريق واضحة توصل إلى الهمة العالية والعزم الفتي.

١٢) وغرَّد قلبي:

كتـاب يجمع أفضل ما نزل على صفحتي على الفيس وتويتر مبوَّبة منسقة، وتشمل

مواضيع مختلفة، وبمثل وجبة خفيفة لمن لا يحب القراءات المطولة، وهو يحوي قرابة الألف تغريدة.

١٣) جنتان:

في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وهي جنة القرب من الله، والوقوف على أعتابه، وهي متعة نفسية غامرة يتذوق فيها المؤمن ثمارًا لو علمها أصحاب السلطان لقاتلوه عليها من سكينة عند البلاء، غنى قلبي غامر، وسعادة لا تقدَّر بمال، ووضاء في القلب والوجه، وبركة في الوقت، وبلوغ لمقام الولاية، وغير ذلكك من المغريات والمشوِّقات لسلوك طريق الله، وهجر سبل الشيطان.

ثانيًا: الإصدارات الموسمية

١٤) المهاجرون الجدد:

دروس ثمانية من الهجرة من تمثَّلها نال أجر المهاجرين وإن لم يقطع الصحارى والقفار.

١٥) المهاجر:

رسالة صغيرة الحجم مطبوعة في ٢٤ صفحة، بمناسبة العام الهجري الجديد، تتناول معنى الهجرة وأثرها في حياة المسلم بنظرة مختلفة، وخطة عمل تفصيلية عن كيفية الإقلاع عن الذنوب ومحفزات ذلك. وتهدف إلى بدء عام جديد بقلب أنقى وعهد جديد مع الله عز وجل.

١٦) من الطارق:

هو كتاب يتناول شهر رمضان كزائر عزيز، معه الهدايا الغاليات، والتي تتطلب منا رد الجميل من قيام ودعاء وقرآن.

١٧) ٩٠ يـــوم ثـــورة:

كتـاب رمضاني يستهـدف تعظيم الاستفـادة من رمضـان باعتباره ثـورة حقيقيــة في كل مجالات الحيـاة: العاديات والعبادات والسلوكيات والعلاقات، ويستهدف اغتنام رمضان في تغيير لا يتاح في غيره من الأشهر المباركة.

١٨) الاعتكاف.. تربية الأيام العشرة:

يتحدَّث عن مقاصد الاعتكاف العشـرة، مع إبراز أفضل عبادات المعتكف، والتعرُّض لسموم الاعتكاف أي محظوراته.

١٩) سهـام الخيـر.. عشـر ذي الحجــة:

يحوي عشر عبادات موزّعة على الأيام العشر مع التحدُّث عن فضائل هذه العبادات، مع تمهيد بفضل هذه الأيام.

٢٠) رحلة المشتـاق.. العمـــــــــرة:

كتـاب جديـد في موضوعه يحوي فوائد جمّة ومعاني غزيرة تكشف الأسرار الباطنــة للعمــرة.

٢١) رحلة المشتـاق.. الحـج والعمـــرة:

كتاب يشمل أسرار العمرة إضافة إلى أسرار من الحج، وهو ضعف كتاب العمرة تقريبا، وفيه قرابة ضعف فوائده.

٢٢) (١٠×١٠).. لمن فاته الحـج هـذا العـام:

رسـالـة صغـيرة الحجـم مطبوعـة في ٢٤ صفحــة، بمناسبـة أيـام العشـر الأوائل من ذي الحجــة.. التي هي أعظـم أيام الدنيـا.. وهي تتحدث عن عشـر عبادات هامـة تمـلأ هـذه الأيــام المباركـــة.

ثالثًا: قريبـــــًا

٢٣) أول صفوف أهل الجنة:

كتاب يتناول قضية (أي العمل أفضل) من خلال طرح مقاييس تفاضل الأعمال لكي يُغري الصالحين بالتنافس، وأيهم يكون (أحسن عملاً).

٢٥) بينـي وبـين ربـي:

كتاب يتناول العلاقة بين العبد وبين الله، وذلك عن طريق تتبع الآيات والأحاديث التي تتناول الإحسان والرضا والمحبة والنصرة وغيرها، مع شرح ما يكون منها من الله وما يكون من العبد، والفارق الشاسع بينهما.. مما يورث العبد عبادة الله بحب وشوق وحياء.

٢٦) المعركـة الأخـيرة:

كتاب يهدف إلى تجسيد عداوة الشيطان لديك إلى عداوة حسية ملموسة، وعلى شكل معركة؛ لأن هذه هي حقيقة العلاقة بينك وبينه، وذلك عن طريق استعراض عداوة الشيطان التاريخية لك، واستعراض أسلحته والأسلحة المضادة لمواجهة كل سلاح من أسلحته، مع وضع خطة تفصيلية خطوة بخطوة للتغلب عليه ودحره ذليلاً صاغرًا.




الفهرس


جنتان